حوارات مع جيمس جويس

آرثر باور

تـقـديم

كان آرثر باور فناناً ايرلندياً شاباً، قادماً للتوّ من دبلن، حينما تعرف على جيمس جويس خلال سهرة في أحد مراقص باريس. وقبل ذلك كان صاحب «أوليسيس» قد عاش في ترياست الايطالية التي أمضى فيها عشر سنوات (من العام ١٩٠٥ حتى العام ١٩١٥)، وفي مدينة زيوريخ السويسرية من العام ١٩١٥ حتى العام ١٩٢٠. وبعد ذلك، انتقل إلى باريس ليقيم فيها حتى العام ١٩٤٠. وعند وصوله إليها، كانت العاصمة الفرنسية تعيش الآلام والأوجاع التي خلّفتها الحرب الكونية الأولى، غير أنها مع ذلك، كانت تعيش إحدى أهم الفترات الذهبية في مجال الفنون والآداب بمختلف الأشكال والاتجاهات. فقد كانت المدارس الفنية والطلائعية تولد مثل الفطر في مقاهيها وأحيائها. ومن جميع أنحاء القارة العجوز، كان يتوافد إليها فنانون وكتاب وشعراء حالمين ببعث عالم جديد يقوم على أنقاض العالم القديم الذي قوّضته الحرب الكونية الأولى. ورغم ذلك، فإن جويس فضل عدم الانخراط في الحياة الباريسية الصاخبة، منصرفاً انصرافاً يكاد يكون كليا إلى عمله، مخصّصا ما تبقى من وقته لعائلته، ولنفر قليل من الأصدقاء.

ويعترف باور بأن فهمه كان محدوداً لعالم جويس، خصوصا لرائعته «اوليسيس». كما أنه كان يفضل الكلاسيكية والرومانسية على الأساليب الفنية الحديثة التي كان جويس يدافع عنها بحماس وقوة. ومع ذلك، استطاع أن يستحثّ مواطن بلده الذي أصبح من مشاهير الكتّاب في أوروبا، على الإدلاء بآرائه في مجموعة من الكتّاب الغربيين الكبار، وفي العديد من القضايا الفنية والأدبية التي كان نادرا ما يخوض في شأنها مع الآخرين. ويبدي جويس قسوة كبيرة تجاه بعض الشعراء والكتّاب من أمثال بوشكين الذي يقول عنه، إنه «كتب مثل طفل ومات مثل طفل»، وتوماس وهاردي وسانج وآخرين، لكنه يشيد بأعمال دستويفسكي ومارسيل بروست وأندريه جيد وت. س. اليوت، وابسن وارنست هيمنغواي. وقد ظل باور يلتقي بجويس عدة مرات في الشهر الواحد لسنوات طويلة، مسجلاً خلال كل لقاء معه آراءه المذكورة. لذا يمكن القول: إن الحوارات التي أجراها معه مفتاح جيّد لفهم عالم صاحب «اوليسيس»، وسبر أغوار فنان عظيم أحدث ثورة هائلة في فن الأدب والكتابة خلال القرن العشرين.

المترجم

I

في مرقص « Bullier » التقيت بجيمس جويس للمرة الأولى. ذهبت إلى هناك ليلة السبت لأني كنت على موعد مع « Annette » الغسّالة الشابة التي كانت تمرّ مرة واحدة في الأسبوع لكي تأخذ ثيابي للغسيل. وهي فتاة جميلة، وعنيدة، أصبحت في ما بعد «موديلا»، وانتهت حياتها بطريقة مأساوية

وأعتقد أن العيش في " الاتيليه " هو الذي جعلها تهتم بالأعزب المتوحّد الذي كنته في ذلك الوقت. أحيانا، وأنا أتحدث إليها كانت تتسلّى بأن تضرب برجليها قطع الفحم المتناثرة أمام الموقد لكي تلقي بها إلى الناحية الأخرى من الغرفة، وهي طريقة جدّ حاذقة، لكي تظهر لي أنها لا تجعل من طريقتي في ترتيب البيت مسألة مهمّة.

وبما أنها أعلمتني أنها تذهب للرقص كل ليلة سبت، فإني اقترحت عليها أن نلتقي في «Bullier» وهو مرقص شعبي في حي مونبارناس اختفى الآن، مثله في ذلك مثل كثير في الأشياء في باريس القديمة. لكن في ذلك الوقت كان يقع في أعلى جادة SAINT-MICHEL في جادة " L'OBSERVATOIRE قبالة حدائق " لوكسمبورغ.

والمرقص نفسه كان بناية كبيرة يلج إليه مرتادوه بنزول المدارج، ذلك أن الطابق الأرضي كان تحت مستوى الشارع. في الداخل حلبة رقص محاطة بشرفة تدعمها أعمدة حديدية، وتحت هذه

الشرفة تصطفّ طاولات ومقاعد حديدية. وكانت هناك فرقتان واحدة نحاسية، والأخرى وترية، تتبادلان العزف في كل ناحية من القاعة. ولم تكن الفرقتان من الصّنف الأول، ذلك أن المرقص كانت ترتاده بائعات المحلات التجارية الصغيرة، كما كان يرتاده البعض من المثقفين الذين أتعبتهم المقاهي، فأخذوا يجيئون إليّ هناك، لكي يتسلّوا معجبين بجوّه المعفى عليه وبأثمانه الزهيدة. وعندما دخلت إلى هناك، رأيت مجموعة من الناس جالسين حول واحدة من الطاولات، بينهم كانت هناك صديقة لِـ" JO DAVIDSON. وقد حرصت على تجنّب الاقتراب منهم، ذلك أنني ذهبت إلى هناك لكي ألتقي بـ «آنيت» وليس لكي أقضي السهرة مع مثقفين، باتوا وكأنهم المصير الذي يترصّدني دائما عند المنعرج.

وكنت جدّ ملتهب، وجدّ متهيج، لأنني سأقضي السهرة مع فتاة جميلة كنت قد بدأت أحبها أنا الأعزب المتوحّد، والتي إن أسعفني الحظ سأكون متيماً بها قبل نهاية الليل. كان الوقت يمرّ ثقيلاً ودائما لا أثر لـ «آنيت»، وذلك برغم أني طفت أكثر من مرة في القاعة بحثا عنها. وفي النهاية، يائسا تماما من قدومها وجدّ راغب في العثور على من يساعدني على نسيان خيبتي، مررت في نهاية السهرة بالطاولة التي كانت تتحلّق حولها المجموعة التي كنت قد شاهدتها عند دخولي إلى المرقص. والسيدة التي أعرفها أشارت إليّ بأن ألتحق بهم، وقدمتني إلى سيّد ضعيف البنية، بقسمات لطيفة، وعثنون على شكل القرن. وكان يضع على عينيه نظارات سميكة.

– السيد جيمس جويس! قالت السيدة.

كانت مفاجأة بالنسبة لي، ذلك أني لم أكن أعرف أنه في باريس. وفي آخر مرة سمعت الناس يتحدثون عنه كان يعيش في سويسرا. وعندما كنت أعيش في دبلن كنت قد قرأت« أناس من دبلن»، وفي ما بعد «صورة الفنان شابا»، لكن في ذلك الوقت كان الأدب الرومانتيكي هو الذي يهمني، ولذا لم تدهشني كتبه كثيرا.

لك لقاء واحداً من كتّابنا المهمين أثار فضولي. من ناحية أخرى، كنت أحبّ الرجل وتحفظه، وحساسيته، ولطفه المُعفى عليه. وهكذا وجدت نفسي جالسا إلى جانبه. سألني إن كنت قادما من دبلن. وقد بدا مغتبطاً عندما أجبته أني كنت هناك قبل وقت قصير وطلب مني أن أذكر له أسماء من أعرف. لم ترق لي مثل هذه الأسئلة، ذلك أنني جئت إلى باريس لكي أنسى ايرلندا عموما، ودبلن مسقط رأسي بصفة خاصة.

قطعت حوارنا شابة أمريكية تدعى سيلفيا بيتش، اقترحت أن نرفع كؤوسنا على نجاح الكتاب الجديد لجيمس جويس، تعني بذلك «اوليسيس». عند منتصف الليل تفرقت المجموعة. ولكن ونحن نسير في الشارع اقترح على جويس أن نشرب كأساً أخر ى في «LA CLOSERIE DE LILAS» في الناحية الأخرى من الشارع قبل أن نفترق. وقد حدثني عن الصعوبات التي اعترضته في العثور على ناشر لكتابه الجديد، في حين استغرقت كتابته ثمانية أعوام كاملة. عقب تلك السهرة لم ألتق بجويس لبعض الوقت، ثم تلقيّت منه رسالة شفوية بواسطة صديق عرض فيها عليّ أن أزوره في شقته بشارع «RENNES».

بعد ذلك بيومين، مارّاً أمامها في طريقي إلى سهرة في مرسم في MONTROUGE صعدت إلى هناك عارضا عليه مرافقتي. في ذلك الوقت كنت اعتقد أن بإمكان الفنان أن يكون بوهيمياً، خصوصا في الظروف المثيرة التي تتيحها مدينة مثل باريس. وقد بدا لي أثناء الوقت القصير الذي رأيت فيه جويس أنه يحيا حياة بورجوازية وأنه يلتقي بقليل من الناس.

وكنت أريد أن أقنعه بمرافقتي إلى السهرة في المرسم، والتي نظمها رسام يدعى فيدر، وهو يهودي روسي تمكن من الإفلات من مذابح أوديسا ليصبح رساما في باريس. وهو يمتلك مجموعة رائعة من المنحوتات الزنجية، واحدة منها من الصندل الأترجي اللون تمثل الشمس تبسط سهاما من الأشعة على كل مساحة الجدار. وكان يجمع أيضا آلات موسيقية. وهذا الرجل الخيّر والمهذب صاحب الروح النبيلة والمتهكّمة كان مضيفا رائعا.

وكنت أعتقد أنه في جوّ كهذا يمكن لجويس أن يستريح أو يشرب كأسا ويثرثر مع الفتيات،

غير أن عائلته استقبلتني بطريقة سيئة، خصوصا عندما عاينت أن جيوبي كانت مليئة بالقناني. وبما أن بصر جويس كان ضعيفا جدا في ذلك الوقت، فإن الأطباء منعوه من الشراب. وبالنسبة لعائلته كنت السكير الأيرلندي الذي قدم ليدعوه إلى سكرة سلتية (متعلق بالسّلتي). وقد انحنى ابنه على الكرسي الذي كنت جالسا عليه مباعدا ما بين ساقيه، وكأنه يريد أن يقول لي:

« متى تخرج من هنا؟»

وكان وضعاً مرعباً، لذا قررت أن أنقذ نفسي منه بأقصى سرعة، وخاضعاً للعاصفة المنذرة بالانفجار رفض جويس دعوتي. سارعت بالانصراف وأنا سعيد بالتخلص من ذلك الجو الخانق. وقد رافقني جويس حتى الباب. وعند بلوغي قرص الدّرج استند إلى الجدار ليقول لي بصوت

شاك لكنه مازح :

– «أنت تعلم أنني إنسان ذكي، لكن لابد أن أتأقلم مع أشياء كهذه»، ثم أضاف مبتسما بأننا سوف نلتقي حتماً ذات يوم.

موقفه ذلك جعلني أتصور أنه يمكن أن يقاد بسهولة ويسر. لكن عندما خبرته جيدا، وتعرفت على عائلته وأدركت الخطر الجسيم الذي كان يتهدّد بصره، غيّرت رأيي. ثمّ التقيت به بعد ذلك بوقت قصير في شارع «BAC». وذلك عندما دعاني إلى شقته المعتمة ذات النوافذ الحديديّة. وللتوّ أصبحت صديقا كبيرا للعائلة ولزوجته نورا بالخصوص، والتي أدركت أنني لا أرغب حقا في جرّ زوجها إلى سهرات خمريّة، وإنّي لا أبالغ في الشراب.

وعاجزاً عن البقاء في مكان محدّد، كان جويس يغيّر سكنه طوال الوقت، للضرورة أحيانا، واستجابة لطبيعته في غالب الأحيان. بعد ذلك انتقل إلى شقة مريحة، جيدة التهوية، تقع قبالة برج ايفل، وقد أديت له فيها العديد من الزيارات.

وكنت أحتاط ألاّ أذهب إلى هناك قبل نهاية الظهيرة، وهو الوقت الذي يغادر فيه جويس مكتبه، ليدخل إلى قاعة الجلوس مرتدياً بدلة العمل، البيضاء القصيرة، والتي لا تختلف في شيء عن بدلة طبيب الأسنان. ثم ينهار على الكرسي مطلقا زفرة طويلة تنطلق من القلب. وكانت زوجته تقول له: «بحق اللّه يا جيم، انزع عنك هذه البدلة!». غير أنّ الجواب الوحيد الذي تتلقاه منه هو ابتسامته التي تشبه ابتسامة الموناليزا، ثم يلقي عليّ نظرة مفعمة بالدعابة والظرف من خلال نظراته السميكة.

بعد ذلك، خلال السهرة، كان من عاداته أن يذهب إلى«Trianons»، وهو مطعم فاخر يقع أمام محطة مونبرناس، ليتناول عشاءه. في هذا المطعم، التقيت بـ« مراي لورينسين»، التي توقفت عند طاولتنا لتتحدث إلى جويس. كنتُ معجبا بأعمالها، ومفتونا بالفتيات الشابات الهشات، وذوات الحساسيّة المفرطة، التي كانت ترسمهن. لكنّي فوجئت أنا الذي كنت أتصور أنها شبيهة بموديلاتها عندما وجدت نفسي أمام امرأة ثقيلة الجسد، بملامح ذكوريّة. وحسب الإشاعات كانت ماري لورانسين تفضل الرياضيين، لاعبي الكرة والدرّاجين. قالت لجويس :

– سيد جويس. . أريد أن أرسم ابنتك. قل لها أن تأتي إلى مرسمي الأربعاء المقبل، في الساعة الحادية عشر صباحا.

وأعتقد أنه عندما وصلت لوسيا (ابنة جويس) إلى المرسم، وجدت ماري لورانسين ممدّدة في غرفة ومسدلة الستائر، شاكية من صداع سببته لها «قنبلة» الليلة البارحة. لذا أجلت الموعد معها. وأنا لم أر أبدا «البورتريه»، وهذا أمر مؤسف ذلك أن لوسيا، بملامحها المرتابة والطفولية، كان يمكن أن تكون موضوعا جيّدا لماري لورانسين.

عند عودته إلى شقته الكائنة بـ «Square Robiac»، كان من عادة جويس أن يكون متهيئاً للحديث والنقاش، وله مزاج جدّ اجتماعي. وكنت أجده، وبجانبه قنينة «Saint-Patrice»، شرابه الأبيض المفضل والذي اكتشفه عند قضائه لإحدى العطل في منطقة «Midi De La France». وفي الحين نشرع في الحديث حول أشياء كثيرة ومختلفة. غير أن موضوع حديثنا الأساسي كان الأدب بطبيعة الحال، وهو الشيء الذي يجمع بيننا. وفي المعنى العادي للكلمة لم يكن جويس فصيحاً. وفي الحقيقة كان رجلا جدّ صموت.

«الصمت والمنفى والحيلة»، كانت الأسلحة التي كان يتباهى بها، على الرغم من أنه يتوجب عليّ أن أقول إنه لم يقدم دليلا يمكن أن يقنع الناس بأنه يمتلك السلاح الثالث. لقد كان صريحا بشكل عجيب، ولا علاقة له بالمكر، أو بالخداع، لا من قريب ولا من بعيد. لكن الحقيقة أن الرجال الصموتين ربما يكونون محتالين أكثر من الثرثارين. وخلال نقاشاتنا، كنت أتكلم أكثر منه، وأعتقد أن فكري التحليلي هو الذي -للغرابة- قوّى صداقتنا. وعندما أعطاني جويس مخطوط «أوليسيس» أخذته، وكان ثقيلا مغلّفا بورق الصرّ. وأنا أجتاز الطرقات المزدحمة بالتاكسيات عائدا إلى مرسمي، كنت أرجف طوال الوقت مذعورا من أن تدهسني سيارة أو أن أفقد المخطوط. ولكن عندما شرعت في قراءته، أدهشتني حداثته وأسلوبه الجديد، وأحسست أنني ضائع وسط زوابع نثره المعقد، دون أن أدري أن تلك الحادثة قد وقعت فعلا أم لا، أو أن ما حدث لم يكن غير وهم من الأوهام السلتية. وفي الحقيقة كنت قد أغضبت جويس في ما بعد عندما شرعت في التحقيق بطريقة دقيقة حول ما حدث بالفعل خلال لقاء «بلوم ب: غيتري ماكدويل» على الشاطئ. واذكر أن جويس قال لي:

- لم يحدث أي شيء، كل شيء حدث في خيال بلوم.

وبعد أن قرأه، وضع "H.G.Wells" نسخة من الطبعة الأولى، كانت مجلدة بشكل سيئ، حتّى أن الأوراق تناثرت على الأرض، وشعر- كما حدّث البعض بذلك- أنه قمع ثورة كانت

في طور الانفجار.

غير أني كنت أعلم أن تلك الثورة كانت قد اندلعت ولم يعد باستطاعة أحد إيقافها. متخذاً من المدينة التي ولد فيها، والتي كان كارهاً لها في الماضي، غير أنه أعاد ابتكارها ليحبها من جديد، كان جويس قد خلق واقعيّة جديدة، في جو كان في الوقت نفسه مزيجا متساويا من الواقع والحلم. وبشأن مسألة التماثل الشهير مع «الأوديسة» لهوميروس، وهو تماثل كنت وضعته شخصيا موضع الشك- أتذكر أن جويس أخذ كمثال على ذلك فصل «جنيات البحر» الذي يوجد في «ORMOND BAR» على الأرصفة. وقارن النادلات في البار بجنيات البحر عند هوميروس ، ملاحظا لي أن النادلات بتصفيفات شعرهن المنجزة بعناية، وبزينتهن وفساتينهن البيضاء لسن جميلات في النصف الأعلى من الجسد. أما على مستوى الجزء الأسفل فهن يرتدين تنورات قديمة، وينتعلن أحذية بالية، وجوارب مرقعة.

مرة أخرى، وبما أني أبديت إعجابي بالجملة التالية: «تالاتا. تالاتا. إنها أمنا الكبيرة واللطيفة»، ألقى عليّ جويس نظرة جانبيّة وقال: «اقرأ الجملة السابقة لما ذكرت. فلقد كتبت: «البحر النخامي. البحر القلوص- الخصويّ»، وهناك حيث يصف هوميروس جيادا ممراحة، ورجالا وسيمين، ونساء جميلات، وآلهة وآلهات، تدور أحداث «أوليسيس» كما نعلم في شوارع قذرة، بين نساء مهملات، وفي بارات مزدحمة بالسكيرين، وكل هذا يصل إلى الذروة في فصل « CIRCE » في « NighTown ».

احتفظت من شبابي بذكرى غائمة عن محلات البغايا، التي تقع في حي سيئ السمعة، بعدد من المنازل ذات سقوف من القش حيث كل شيء كان مباحا، وحيث كانت تتسكّع نساء، بالأحرى عجائز، يرتدين أقمصة سوداء. وإذا ما أنت نهضت لكي تتحدث إلى أحداهن، وبمعجزة، هنّ وحدهن قادرات على معرفة سرّها، تجد عند عودتك إلى مكانك، كأس الويسكي الذي طلبته وقد تحوّل إلى كأس ماء، في حين، كانت هناك فينوس ريفية ممددة في آخر القاعة وبجانبها شمعة ملتهبة بالقرب من فراش الزوجية.

برغم هذه الذكريات المنفرة، فإنه كان مهما بالنسبة لي أن يعود ايرلندي قادم من زيوريخ إلى باريس ومعه عمل أدبي عظيم، مكتوب بلغة حديثة، وموضوعه المدينة التي ولدت فيها. وفي الحقيقة، لأنني كنت دون شك فخورا بذلك العمل، وليس بإخراج جويس من حياته البورجوازيّة،

فإني حاولت أن آخذه معي إلى السهرات في المراسم. راغباً في تعريفه على أصدقائي.

ذات مساء، كان لنا حوار حول خصائل «Synge». وكان جويس قد تعرف عليه لما سكن في شارع «Assas»، غير أنه كان يرى أنه شخص من الصعب معاشرته.

– إنه يتأجّج ويغتاظ من أجل لاشيء. أتذكر أني ذهبت إليه ذات مرة لأقترح عليه قضاء ١٤ يوليو/ تموز (عيد الثورة الفرنسيّة–المترجم) في حديقة «Saint-Cloud». غير أن «Synge» اغتاظ جدّا من فكرة قضاء يوم عطلة مثل–حسب التعبير الذي استعمله–أي بورجوازي يشارك في نزهة على العشب ورفض الذهاب معي. وفي الحقيقة نحن كنا نتوتر جدا ونحن نتناقش، حتى أنني قررت في النهاية عدم مقابلته.

سألتـه:

– وما هو رأيك في عمله الأدبي؟

فـأجـاب:

– انه لا يهمني، ذلك أنني أعتقد أنه يكتب بلغة مصطنعة وغير واقعية، تماما مثل شخوصه. بالإضافة إلى ذلك، وحسب تجربتي، أرى أن الفلاحين في ايرلندا مختلفون جدا عن الفلاحين الذين في أعماله الأدبيّة. فهم قساة ومحتالون ومبتذلون في لغتهم وأنا لم أسمع أبدا واحدا منهم يتكلم اللغة التي يستعملها «Synge» اسمهم.

ورددت عليه قائلا: « لكن من المؤكد أنه أخذ ذلك من مكان معيّن. ففي غرب ايرلندا مثلا، سمعت جملا مدهشة. أتذكر أنني طلبت ذات يوم من فلاح في خليج «Costello» إذا ما كانت هناك فقمات»، فصاح بي: «فقمات؟ أكيد أنها نائمة هناك مشدودة إلى بعضها بعضا مثل أصابع اليد، وأنها تتدفأ بأشعة الشمس على الصخور».

هذه الجملة بدت لي وكأنها واحدة من جمل "Synge". وأنت تتذكر خطبة «Mary Byrne» في «أعراس المبيّض« حول الملكات الكبيرات وهَوسَهنّ بتنظيم حفلات الزواج، واللقاءات. وفي النهاية يقول «Synge»: «وطوال النهار هنّ يرتدين فساتين من الحرير البرّاق، وأقمصة بيضاء لليل». وردّ جويس محتجا: «ولكن متى سمعت أحدا يعبر بمثل هذه التعابير؟».

– المسألة هي أن نعلم إن كان لا بد أن يكون الأدب واقعيّا أو أن يكون فنا فقط.

وأجاب جويس: «لا بدّ أن يكون الحياة. وثمة شيء لم أستطع أن أتعوّد عليه خلال فترة شبابي

ألا وهو الفرق بين الحياة والأدب. أتذكر صديقا ذهب ليستقر في الغرب (يقصد غرب ايرلندا- المترجم) وعاد من هناك بخيبة مرة. وقد قال لي: «لم أسمع ولو جملة واحدة من جمل «سانغ» طوال الوقت الذي عشت فيه هناك!». مثل هذه الشخصيات لا توجد إلاّ على خشبة «المسرح الوطني الأيرلندي». لكن خذ شخصا مثل ابسن.. فهذا مسرحي حقيقي بالنسبة لك. انه يكتب مسرحيات جديدة حول المشاكل التي تهم جيلنا..

ومندهشا صحت فيه قائلا: ابسن؟ لا يمكنني أبدا أن أقارن بين ابسن وسانج، ذلك انه يوجد في مسرحيات ابسن شيء بشع للغاية وخاصّة تلك التي تدور أحداثها في ضواحي المدن، وفي تلك الشخصيات المضجرة التي تعيش في الأحياء الخلفيّة التافهة في حين ان شخصيات سانج هي في رأيي كائنات رائعة تعيش في وئام مع الطبيعة. وهذا ما تدلل عليه جمل مثل: »مع الربيع الذي يصعد على الأشجار»، أو«قمر جديد في السماء»، أو«مطعم ريفي على طريق المعرض». إنها شخصيات خارقة، وجسورة وجدّ مختلفة عن شخصيات ابسن التي تقضي حياتها في العيادات، أو في حضور اجتماعات مجلس المدينة. شخصيات مزعجة ومكبوتة تمثل طبقات البورجوازية في أي مدينة....

وسألني جويس: «وما رأيك في الدكتور ستوكمان في «عدو الشعب». أنت لا تستطيع أن تنكر أنه شخص جيّد».

- انه شجاع حسب طريقته. بل انه شخص جميل لكن هناك نقص فادح على مستوى الشعر في المسرحيّة. كل تلك القصص حول المجاري الملوثة، وحول قنوات المياه الفاسدة والحمّامات الاستشفائيّة «وجموع العاجزين والمرضى»...

ورد جويس:

- أنت لم تفهم شيئا من المسرحية، توزيع المياه الملوثة، وقنوات المياه الفاسدة، وكل هذا الذي أنت تتحدث عنه، هو رمز ما يعارضه الدكتور ستوكمان وهو يعني بذلك أن كل الينابيع الروحية والفكرية مسمّمة. أنت لا تستطيع أن تنكر أن الدكتور ستوكمان شخصية أكثر حذقا من شخصيات «سانج»، وأن شخصا يناضل ضد سياسة المدينة الفاسدة موضوع أكثر أهمية من أولئك المبيّضين الصياحين والنقاعين ومن أولئك العاطلين نصف المجانين...

قلت له:

– أنا أطرح السؤال على نفسي. أطرحه بكل جدية، وفي الحقيقة إذا ما كانت ذاكرتي جيدة، فإني أعتقد أن سانج كان يكره مسرحيات ابسن، فهذا الأخير يعالج ما يسميه سانج بـ «المواضيع الشائنة والمخجلة» بعبارات حزينة ودونما لون، في حين أن في المسرحية الجيدة كما يقول سانج لابد تفوح كل إجابة بالتفّاح والجوز.

وهز جويس رأسه ثم قال:

– أنت لم تفهم شيئا، لا من نواياه ولا من عمقه السيكولوجي، وهو ما يتعارض مع الرؤية الرومانسية لسانج. أنت لم تفهم أيضاً كم هي مبهرة دراساته للحياة الحديثة، حيث استطاع أن يستبطن أعماقا سيكولوجية جديدة، وانطلاقا من ذلك أثّر في جيل كامل من الكتاب. ولكن هل أثر سانج في كاتب ما؟ لا أحد تأثر به سوى بعض كتاب الدراما الذين يحاولون العمل مع المسرح الوطني الايرلندي متخذين كمواضيع، فكاهيين قرويين، شخصيات آملين من خلالها إضحاك الآخرين.

– ولكن هل إضحاك الآخرين أمر سيئ؟! في الحقيقة الرصانة المضجرة بصفة قاتلة عند ابسن هي التي تنفرني، وطريقته في النظر إلى الحياة، كما لو أنها ميدان قتال، تتجابه فيه أفكار الشؤم التي هي أفكاره.

– أنت لم تفهمه كما سبق وأن قلت لك، كرر جويس. أنت لا تأخذ بعين الاعتبار الفكرة التي تحركه. إن هدف مسرحية مثل «بيت الدّمية» كان تحرر المرأة الذي أحدث أكبر ثورة في عصرنا في العلاقات الأكثر أهمية، أعني بذلك العلاقات بين النساء والرجال. ثورة النساء ضد فكرة أن يصبحن مجرد أدوات في أيدي الرجل.

– وهذا أمر مؤسف، ذلك أن العلاقات بين الجنسين فسدت الآن. فلقد سمح أن يحل مفهوم ثقافي محل عامل بيولوجي، والنتيجة في نهاية الأمر أن لا أحد من الجنسين يشعر أنه سعيد.

– العلاقات بين الجنسين هي الآن في موضع مختلف. وأنا لا أعرف إن كانا أكثر سعادة، أو أكثر تعاسة من ذي قبل. وأظن أن هذا يتوقف على الأشخاص، غير أني أعرف أن ابسن كان له تأثير حاسم على الجيل الجديد. وفي الحقيقة يمكن أن نقول إنه هو الذي كوّن هذا الجيل، وأفكاره أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا حتى وإن كنا لا نعي ذلك. . .

– يمكن أن تكون على حق، ولكني أمقت جفاف طبع ابسن، والمسرحيات التي كتبها، لذا

لا يمكن أن أكون متفقا معك. بالنسبة لي اللغة لها أهمية جوهرية، لذا أنا أعشق سانج واعشق لغته الرائعة.

– ولكن لغته هي التي تنفرني. جملته الطويلة المثقلة أكثر من اللازم والتي على الممثلين أن يتلفّظوا بها بصعوبة وعسر، متسائلين، كما أظن إن كان باستطاعتهم بلوغ نهايتها، وخطبه المزهرة التي تعرقل السياق الدرامي. كل هذا استعمال سيئ لخشبة المسرح. خذ كاتبا مسرحيا مثل شيريدان صاحب الجملة القصيرة والسريعة والتي تنفجر مليئة بالأفكار الجيدة. انه لا يهذر أبدا.

– ذلك خطأ الممثلين، إذا لم يكن باستطاعتهم الوصول إلى آخر الجملة. بالنسبة لسانج تبدو لي الجمل كما لو أنها تسيل بطريقة طبيعية إذا ما نحن لمسنا النبرة والحالة الفكرية للناس المفروض عليهم التلفظ بها. في هذه الجمل هناك عزّة النفس، والانفعال واللون وقوة الشخصية. أنا أكره المسرحيات التي تشبه خطبا متواصلة. كل هذا يمكن أن يكون مضجرا.

– المسرح هو فن الفعل المعبر، وليس علينا أن نحاول خنقه كما يفعل سانج. مقابل ذلك الحوار عند ابسن هو دائما ذكي وصحيح. أعتقد أن رومانسية سانج هي التي تجذبك. ربما تكون على حق، ذلك أن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل تم خلق فن جدير بهذا الاسم، ولم يكن رومانسيا؟ كل شيء يتوقف على ما تسميه فناً. أليس كذلك؟ وحسب رأيي هناك أشكال متعددة للفنّ، كما أن هناك أشكالا متعددة للحياة.

– انه بهذا الشكل أو ذاك، السّكر بأن نكون سكارى دائما، كما يقول رامبو. أن نكون سكارى بالحياة. أليس الفنان هو الذي يكون سكرانا دائما بالحياة ؟!

– انه الجانب العاطفي من المسألة. . . لكن هناك أيضا المفهوم الثقافي الذي يقود إلى تشريح الحياة، وهذا هو ما يهمّني أكثر في الوقت الراهن. أن نبحث عمّا تبقى من حقيقة في الحياة عوض أن ننفخها بالرومانسية، وهذا موقف خاطئ على طول الخط. في روايتي«أوليسيس» حاولت أن أؤسس أدبا انطلاقا من تجربتي الشخصية، وليس انطلاقا من فكرة مسبقة أو من إحساس عابر أو طارئ.

– أرى أنك كنت تكتب أفضل لما كنت رومانسيا. . . مثل « ديدالوس».

– انه كتاب فترة شبابي. . . أما «اوليسيس» فهو كتاب فترة نضجي. وأنا أفضل الفترة الثانية على الفترة الأولى. " أوليسيس" عمل يرضيني أكثر من الأول ذلك، أن الشباب فترة نعذب

فيها أنفسنا وليس باستطاعتنا أن نرى بوضوح. أما في « أوليسيس»، فقد حاولت أن أرى الحياة بوضوح، وأن أفكر في الحياة كما لو أنّها شيء كامل. إن " أوليسيس " كان دائما بطلي المفضل. نعم، هو كان كذلك حتى في فترة شبابي القلقة، غير أنه كان عليّ أن أعيش نصف العُمر لكي أدرك التوازن الضروري للتعبير عن ذلك، إذ إنّ فترة شبابي كانت موسومة بالعنف بصفة استثنائية. كانت صعبة وعنيفة.

– حياة كل إنسان صعبة وعنيفة حسب اعتقادي. ذلك اليوم كنت أنظر إلى بندول إيطالي في نافذة محل لبيع الأشياء القديمة. وقد رأيت هذه الكلمات مكتوبة بالعرض على السّاعة: « كل واحدة تجرح والأخيرة تقتل».

– كل واحدة تجرح والأخيرة تقتل... هذا شيء رائع... وعليّ أن أسجل هذا حتى لا أنساه... قال جويس.

II

كان جويس يمقت الذهاب إلى أيّ مطعم. ولم يكن يحبّ غير المطاعم القليلة التي تعوّد على ارتيادها، رافضاً رفضاً قاطعاً الدّخول إلى المقاهي الشهيرة التي يرتادها الفنّانون، والكتّاب، والشعراء في حي مونبارناس. فإذا لم يذهب إلى «TRIANONS» فإنه يتناول طعام العشاء مع عائلته عند «Francis» بمواجهة نهر «السين» وبرج إيفل. بعد المسرح، كان يتوقف هناك قبل العودة إلى شقته. ذات مرّة، أردت أن أغيّر عاداته فدعوته إلى مطعم بالقرب من «Madeleine» متخصّص في النبيذ، والأطعمة الخاصة بمنطقة «الالزاس».

ورغم أن هذا المطعم كان استثنائيّا، فإن جويس اغتاظ وعبست سحنته. ومرة أخرى، ذهبنا إلى مطعم شهير في حي مونمارتر. وبينما كنا ننتظر شغور إحدى الطاولات، تعرف فرنسي على جويس وصاح بصوت عال بأنه عبقريّ. وبما أنه لم يكن في تريانون، مطعمه المحبّذ، فإنه أحسّ بأنه ليس مرتاحا. قرب الباب، لاحظت أن هناك امرأة كان يتوقف أمامها كل الرجال لكي يتحدثوا إليها بطريقة وديّة للغاية، حتى أن كل واحد أخذ يتساءل: ربما تكون ممثلة أو مغنيّة شهيرة. وفي النهاية، اكتشفنا أنها تدير محلاّ معروفاً للبغاء بالقرب من هناك. وكانت شخصية من شخصيات ذلك الحيّ، إنها تعرف كل مواهب آخر فتاة جميلة دخلت إلى السوق. ومثلما لاحظ لي جويس، فإن دوقة حقيقيّة لن تحظى بمثل ذلك التقدير والاحترام اللذين تحظى بهما.

وكان جويس يمقت كل ما له علاقة بـ«البوهيمية»، وكان يظهر دائما احتقاره لكل المتعلقين بذلك. ويوما ما سألته عن المكان الذي يحبّ أن يقضي فيه عطلته، فأجابني بغلظة: »في مكان حيث الناس الشرفاء يحصلون على لقمة العيش بطريقة شريفة!«. وكان يبدو أنه جدّ متعلق بحياة منظمة. وقد اعتبرت موقفه هذا كردة فعل ضدّ الحياة التي كان يعيشها قديما في دبلن، وضد البؤس وصعلكة جيله، التي سمعنا عنها الكثير من القصص التي رواها أناس عرفوه في تلك الفترة.

فذات مرّة مثلا، التقى بأصدقائه في الشارع، وطلب منهم جميعا أن يأتوا يوم السبت إلى أسفل «Grafton Street» ، ومع كل واحد منهم ورقة بجنيه واحد. وقال لهم بأنّ هناك شيئا ملحّاً للغاية لابدّ أن يسمعوه. يوم السبت التالي، جاء البعض منهم، فسألهم جويس: « هل أتى كل واحد منكم بجنيه؟». فلما أظهروا له ذلك، ردّ عليهم: «الآن، علينا أن نذهب لتناول طعام الغداء عند «JAMMET» كان جاميت في ذاك الوقت مطعما معروفا جدا، وغاليا جدّا في دبلن، وكان على بضعة أمتار فقط من مكان الموعد. كانت هناك حكايات كثيرة من هذا النوع تروى حول حياة جويس شاباً. لكن في باريس، كان يعيش حياة سطحية للغاية، ومحبوسا طوال الوقت تقريبا داخل شقته.

مرة، طلبت منه أن يلتقي بـ «جو دافيدسون»، غير أنه لم يكن من السّهل تنظيم هذا الموعد، ذلك أن جويس طرح عليّ العديد من الأسئلة حوله قبل أن يقبل بلقائه. كنت أريد أن أختار مقهى في سانت جرمان كان يرتادها بعض الكتّاب الأمريكيين مثل همنغواي وآخرين، وبعض البورجوازيين الفرنسيين من قاطني الحيّ، مكانا لذلك اللقاء، غير أن جويس رفض عرضي رفضاً قاطعاً، واختار مقهى صغيرا يقع في زاوية شارع «BAC» وجادة سانت جرمان. هناك انتظرنا، شبحاً متوحّداً على رصيف مقفر، على بعد ثلاث دقائق سيرا على الأقدام من الأماكن المشهورة التي يرتادها أصحابه وفيها يلتقون.

وفي الحقيقة، حتى وإن كان مشهورا، فإن الحياة التي كان يحياها، كانت حسب المعايير الاجتماعية، منغلقة انغلاقا كليا على العناصر الخارجية. في واحدة من المرات النادرة وكنّا جالسين في مقهى معروف بالضفة اليسارية، أشار له بعض الكتاب الأمريكيين كانوا جالسين بالقرب منا- وأظنّ أنه يعرف البعض منهم- بأن نلتحق بهم. فأجابهم بكلمة واحدة بأنه جالس مع زوجته ومع أصدقائه، لذا هو يعتذر عن تلبية دعوتهم. في أيّ مكان يذهب إليه، كان يتصرف

بمثل هذه الوقاحة. وإذا ما حيّا أحدهم في مطعم، أو في مسرح، أو في أي مكان عام آخر، فإنه يتخلّص منه بأقصى السرعة ليعود من جديد إلى وحدته.

وعندما نكون بصدد الحديث إليه، فإنه من المستحيل ألاّ نشعر في بعض الأوقات، أن الحوار يلعب بالنسبة له دور الطباق لأفكاره الخاصة التي تمضي في طريق مختلف تماما: هو يكتب في ذهنه «العمل في حالة تقدّم». ذات مساء، في لحظة غيظ عابرة صحت فيه بينما كان يملأ كأسي في سهرة من سهراته:

– أنت رجل بلا حرارة!

ولا أنسى أبدا دهشته:

– أنا رجل بلا حرارة ؟! ردّ عليّ.

خلال السهرات التي اعتاد إقامتها في شقته، أعترف أنه كان يتصرف بطريقة مختلفة خصوصا عندما ـ بضيافته الايرلندية السخيّة ـ يشرع في التحرك بين ضيوفه، ودوداً ومرتاح النفس. وكان ضيوفه هم أنفسهم في ذلك الوقت: سيلفيا بيتش، وهي سيدة مفعمة بالنشاط والحيويّة، أصيلة «انجلترا الجديدة»، ولها اهتمام عميق، يكاد يكون مقتصراً، على جيمس جويس وأعماله. وأدريان مونييه، صديقة سيلفيا بيتش، وزوجان أمريكيان.

وقد التقيت بادريان مونييه لأول مرّة في واحد من المطاعم الأنيقة في الشانزيليزيه، يقع وسط الأشجار بالقرب من شارع « Boissy d'anglas ». كانت سيدة فارعة القامة، مثيرة للاهتمام من النظرة الأولى، وفي ذلك المساء كانت ترتدي ثوبا أسود شبيها بثوب راهبة. وهذا ما تركني في حيرة من أمرها إلى أن قيل لي إن ثوبها هو الزيّ الرسمي للشيوعيين. وعليّ أن أعترف أنها بدت لي بلا موقع في مثل ذلك المكان. لكن عندما كانت تأتي إلى سهرات جويس، فإنها كانت ترتدي فستانا أسود عاديا، وكانت تلوح لي من صنف أولئك الفرنسيين فاقدي الحساسيّة تجاه الانفعالات، والذين ليسوا استثناء، لكنهم لا يمكن أن يكونوا متفقين مع الآخرين في الآراء. وكانت تدير مكتبة: « LE NAVIRE D'ARGENT » في شارع أوديون، قبالة مكتبة سيلفيا بيتش. ورغم أننا التقينا أكثر من مرّة خلال سهرات جويس، فإني أعتقد أنه لم تنشأ بيننا أية رابطة . عند منتصف الليل، كان جويس يجلس أمام البيانو، ويجهد نفسه لكي يمرّر أصابعه على المفاتيح. وبصوت صادح، خفيف وجميل كان يغنّي الكثير من الموشحات الغنائيّة الايرلندية يمتزج فيها

الرومانسي بالأغنية المأساوية وبالأهجوّة والتي كانت المنبع السري لخياله.

والشيء المثير للاستغراب، أنه حتى في هذا الجوّ الخالي من أي تكلف أو تصنع، فإن الضيوف لا ينسون أبدا، أصداء مجده. فكانوا دائما يقرأون النصوص النقدية المخصّصة لأعماله، والتي كانت تظهر في العديد من المجلات الأدبية. وبين الكتّاب والمثقفين الآخرين الذين كانوا يجلسون في المقاهي كانت أعماله موضوعا للمناقشة. حتى سولا، الإسباني الذي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية، كان قد سمع أن «أوليسيس» عمل أدبي جدّ مهم، وكان يلاحقني طوال الوقت طارحاً عليّ أسئلة حول الكتاب قائلا لي: «هل هناك حقا شخصية تُدعى «مولي بلوم» تركت شخصاً يحلب ثدييها في كأس شاي؟»

ووفق المبدأ، كان جويس يرفض إجراء حوارات مع الصحافيين، وعندما طلبت منه أن يوضح لي سبب ذلك، همهم بكلمات عن تسرعهم في تقديمك في صورة خاطئة. غير أنه يبدو لي اليوم أن السّبب الحقيقي هو رغبته في أن يظلّ مسربلاً بالغموض ويبقى صعب المراس. وفي حين كان أغلب الفنانين شرهين للدعاية، كان جويس يجهد نفسه لكي يفرّ منها ويتحاشاها. مع ذلك، وبرغم الحاجز الصّلب الذي كان يقيمه بين نفسه والعالم الخارجي، فإنه كان يقوم أحيانا بأعمال غير مرتقبة وغير متوقعة من جانبه. ذات يوم وأنا أتأهب لدخول شقته، التقيت في المدارج زوجين غريبين كانا بصدد المغادرة، وكان واضحا أنهما ينتميان إلى البوهيميين. كان الزوج شابا بشعر أشعث أما الزوجة فكانت من صنف الفتيات اللائي يزعم أنه – أي جويس– يكرههن. سألته عنهما، ذلك أن رؤيته مع غرباء كانت حدثاً غير عادي بالنسبة لي، لكنه أنكر أنه يعرفهما.

– ماذا يريدان؟ سألته بفضول واضح

– إنهما يريدان ترجمة «أوليسيس»

– وهل أعطيتهما موافقتك؟

– نعم

– ولكنك لا تعرف شيئا عنهما وأنت لا تدري من هما؟ – فكيف تعطيهما موافقتك إذن؟

– كثير من الناس يأتون ليطلبوا موافقتي على ترجمة« أوليسيس» وأنا أوافق دائما. . .

– دائما؟ قلت

– «نعم. . .ذلك أنني أعرف أن لا أحد منهم سيفعل ذلك». ردّ باسماً. تلك الملاحظة هي

التي كشفت لي، مع جملة من الملاحظات الأخرى، احتقاره للناس الذين لا يعتبرهم فنّانين جدّيين قادرين على القيام بعمل حقيقي وجاد وهو ما يتطلبّه كل عمل فنّي، «أناس ينامون طوال النهار ويتسلّون كامل الليل»، كما يقول همنغواي . السبب الآخر الذي جعله يتجنب العلاقات الاجتماعية هو ان هذه العلاقات يمكن أن تجهز على قدرته على العمل في تلك الغرفة المملوءة بالكتب، وبالصحف القديمة، والتي لا يدخلها أحد.

وفي الحقيقة، فإنه خلال السنوات التي تعرفت فيها على جويس، لم أره أبدا منشغلا بشيء آخر غير الكتابة، حتّى في ذلك اليوم الذي مررت به بغتة وقت الشاي، وجدته يعمل في قاعة الأكل خلف الحاجز البلوري. وكان مكتبه مزدحما بالمخطوطات. كل مخطوطة مكتوبة بحبر مختلف. . وكان ذلك هو عمله الأخير «WORK IN PROGRESS» ذات مساء كنت معه عند «FRANCIS» قرب الأبواب المتحركة حين دخلت مجموعة من النساء الأنيقات يرتدين معاطف من الفرو، ويزيّن أيديهنّ بالجواهر، وكان العطر ينبعث منهن. وقد بدا جويس وكأنه متجاهل لوجودهن.

وأنا بدأت أتساءل لا عن طبيعة الرجل، وإنما عن نوع الرجل الذي كان، ذلك أني عندما أحاول أن أحلل شخصية جويس، أجد نفسي أمام شخصين: الشخص الأول هو الذي في «ديدالوس» والثاني هو الذي في «أوليسيس» وعندما أفكر في الأمر، فإن جويس الذي يرد إلى ذهني هو ذلك الذي انكشف لي من خلال المقال القصير، لكن المعبر عن «JAMES GLARENCE MANGAN» المنشور عام ١٩٠٢. وقد عرفت أنه كان معجبا بشخصية «MANGAN» الغريبة والتراجيدية، ليس بعمله الأدبي الذي لم يعرف خارج حدود الجزيرة التي ولد فيها، وإنما بشخصيته وبطريقته التي تكاد تكون غريبة. وفي الحقيقة، عندما قرأت ذلك المقال أدركت للمرة الأولى ثنائية شخصية جويس. وبالفعل، فإنه حتى وان كان المقال قد كتب بعقلية رومانسية/ وبنثر نلمس فيه تأثير«PATER»، فإننا نلاحظ أن جويس شرع في شن هجوماته الأولى على الرومانسية والتي لم يكن قد تحرر منها بعد، وأعتقد انه منذ ذلك الوقت، بدأ فكره يؤسس للوضعية الجديدة التي انبثقت من التجربة التي خاضها في «TRIESTE»:

الكفاح من أجل الحصول على لقمة العيش. الشاب الطموح جدّا الذي كان عليه أن يتعذّب، لأنه كان مفروضا عليه تعليم اللغة الإنجليزية مقابل مبالغ زهيدة. وأتذكر أنه روى لي ذات مرة

بشيء من المرارة حادثة وقعت بينما كان يعطي درسا في اللغة الإنجليزية لشابة إيطالية . بعد الانتهاء من الدرس كان جويس يتأهب للخروج لما ربتت الفتاة على كتفه، مشيرة إلى بندول الساعة الذي كان فوقه لتقول له إن هناك ٥ دقائق ضائعة .

مثل هذه الأحداث، التي كانت تقع يوميا، كانت تغيظه من الآخرين . ورغم أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته في القارة العجوز، فان هذه الأخيرة لم تكن تهمّه . كان خياله يحوم دائما حول دبلن . مع ذلك كانت له فكرة ثابتة . إذا ما عاد إليها فإنه من المحتمل أن يقوم أحد ما بقتله . وفي الحقيقة، عقب كل تلك السنوات، فإنه لا يمكن أن يلفت انتباه أحد .

غير أنه كان يبدو مسكونا بمثل تلك الأفكار، أفكار الاضطهاد . وعندما قلت له إن بإمكانه أن يذهب إلى هناك ليقضي بضعة أيام، ثبّت نظراته عليّ، وابتسم لي مستهزئاً كما لو أني عرضت عليه الانتحار . وقد روى له البعض بأن رجلاً دخل ذات يوم إلى مكتبة في «NASSAU STREET» طالبا إن كانت هناك نسخة من « أوليسيس» . وعندما أجيب بالنفي قال : " من الأفضل ألا يضع مؤلف هذا الكتاب رجليه في هذا البلد» وقد قلت لجويس بأن مثل هذه الجملة قد يكون تفوّه بها متزمت ديني أو قومي، ردّ قائلا : – بالتأكيد المتزمت هو الذي يقوم بمثل هذه الأشياء، وقد ساندته زوجته في قراره . وهذا ما جعله راضيا عن موقفه .

III

ذات مساء كنا نتحدث عن الأدب الروسي وكنت بصدد تمجيد تولستوي وتورجينيف وغوركي عندما قال لي جويس بشيء من الانزعاج، أو هكذا بدا لي الأمر :

– أليس هناك روائي إنجليزي يعجبك؟

وفي الحين، منبهراً بالروس وبحججي لصالحهم، تلفظت باسم روائي واحد قائلا لجويس : ما رأيك بـ جورج ميريديت ؟

توقف تدفق أفكاري لحين من الزمن ثم عدت لأقول له :

– لا، ميريديت من الكتاب الذين لا أرغب في قراءتهم . أتذكر أنني عثرت في الخنادق على نسخة من «الأناني»، وبما أنني كنت متعطشا للقراءة، فإني كنت جدّ سعيد بالعثور على ذلك . لكن عقب مرور وقت قصير لم أعد أتحمل، ووجدتني أشدّ الكتّاب إلى حجر، وأرمي به إلى

الألمان في الجانب الآخر من جبهة القتال (حدث ذالك خلال الحرب الكونية الأولى__المترجم). لكنّ هناك حسب رأيي روائيا إنجليزياً جيدا.

– ومن هو؟ سألني جويس.

– توماس هاردي – قلت – TESS D'URBERVILLE وعمله الآخر JUDE l'OBSCUR.

– لكن ألا يتصنّع هاردي ويدعي أيضا؟ لاحظ جويس. ثم أضاف قائلا: «متصنّع ومدّع بطريقته في وضع المرهم على فتاة الضيعة والبقية: الإقطاعي الخبيث بشاربيه المشمّرين، وبكلبيّته (عربة لنقل كلاب الصيد– المنهل). والاغتصاب السهل للفتاة، والطفل غير الشرعي، ثم «ANGEL CLARE» الإنجيلي، وخلافها الآلي والدراما النهائية: جريمة القتل. وأخيرا «ANGEL» وأخت «TESS» واقفان أمام السجن لكي يرفعا علما أسود. بالنسبة لي كل هذه القصة تجعلني أفكر في «جريمة في الحانة الحمراء» " أو في «WOMAN PAYS»، وطريقة الكتابة تكون أحيانا بشعة تماما مثل العقدة وهذا ما لا يمكنك أن تنكره. سوف أظل أتذكر دائما جملة هاردي عندما يصف عواطف« TESS» تجاه «URBERVILLE» : «وقد ولدت فيها من جديد العاطفة المحزنة، والتي كانت قد شعرت بها من قبل أحيانا، والتي تعني أنها إذا ما سكنت الجسد المرغوب فيه والذي وهبته أياها الطبيعة، فإنها تكون قد تصرفت تصرفا مشينا» ثم هناك تلك القصة الغبية عن أجدادها المزعومين، وعن الفرسان الذين ينامون بأسلحتهم المرصعة الفيكتورية (نسبة إلى الملكة فيكتوريا– المترجم). بصراحة هل مثل هذه القصة يمكن أن تكون واقعية؟

وقلت لجويس:

– بالنسبة لي يمكن أن تكون هذه القصة واقعية رغم أنها عديمة المهارة، غير أن عدم المهارة هذا ليس إلاّ سطحيا ذلك أن البناء العميق لـ «تيس» هو في الحقيقة صلب، وحسب رأيي، فإن تيس امرأة جميلة مثل واحدة من نساء شكسبير، بل هي في بعض الجوانب أجمل منها وأكثر إنسانية

وأجابني جويس قائلا:

– قبل كل شيء هي تعطينا الشعور، حسب الخدعة، بأنها جدّ جميلة، مثلما تقول أنت ذلك أن مثل هذا الأمر يحصل بالتأكيد بسبب رداءة الشخصيات الأخرى في الرواية: الإقطاعي الغاوي و«ANGEL» الجبان والرعديد، والأب العجوز السكير . . . الخ، إنها الخدعة عينها التي يستعملها المخرج المسرحي عندما يحيط الممثلة النجمة بتوزيع جد عادي للأدوار . . .

– ربما . . . لكن ليس هذا بالأمر المهم ما دام كل شيء يمضي إلى نهايته المنطقية . . . ثم إن هناك ثراء لغة توماس هاردي الذي هو لصالح تيس والفرادة التي يثبتها في ما هو جزئي . هذه الفرادة هي جدّ واضحة إذا ما نحن عاينا أنه يجهد نفسه دائما لكي يروي ما كان قد حدث بالفعل عوض أن يفعل ذلك، في جملة واحدة بمهارة . إصرار على قول، أو على محاولة قول ما يريد أن يبلّغه، عوض أن يخدعك من خلال تعبير محيوك مثلما يفعل كثير من الكتّاب .

واحتج جويس قائلا :

– ولكن الجريمة . كل هذا يتعارض مع كل ما نحن نعرفه عن تيس، ذلك أنه لا يوجد أي شيء في سلوكها يدفعنا إلى الاعتقاد أنها مجرمة . إنه خطأ سيكولوجي فظيع من جانب هاردي . . .

– إنها فتاة عاطفية وانفعالية، بائسة وجميلة، خليط متفجر . . . قلت بإلحاح . . .

وهزّ جويس رأسه :

– إذا أنت قمت بتحليل عقد هاردي، فإنك ستعثر على كل حيل وخدع الميلودراما، تلك العدة القديمة المرتّجة للرسائل التي لاتصل إلى أصحابها وللبس والمشارطات التي من خلالها البسطاء هم بسطاء أكثر من اللزوم، والخبثاء كائنات شيطانية .

– ربما . . . ولكن مثل هذه الأشياء التي عفا عليها الزمن، كما تقول، لا تزال ناجعة ومقبولة من الناس . . .

– في هذه الحالة ما رأيك في«DYNASTES»؟ (رواية لهاردي– المترجم)، سألني جويس ثم نهض واتجه إلى رف الكتب ليأتي منه بمجلّد أخضر ضخم .

– ها هي الرواية . . . قال .

وبعد أن جلس من جديد على الأريكة، فتح المجلد على الصفحة الأولى ثم شرع يقرأ لي بصوت عال :

– ماذا يعني كل هذا؟ سألني ثم وضع الكتاب . إذا ما أنت أجبت على سؤالي فإني سأقر بأنك غلبتني وانتصرت عليّ . وإذا ما كان هناك كاتب يبالغ في تعظيم وتمجيد نفسه، فإنّه لن يكون سوى توماس هاردي بالتأكيد . . .

ثم أخذ الكتاب من جديد، وراح يتصفّحه ليتوقف عند إحدى الصفحات :

هذا وصف لمعركة . . . قال، ثم قرأ لي بصوت عال :

المرافق الأول، الارشيدوق شارل يتراجع إلى الوراء، صاحب الجلالة. «ونهاية المعركة تأخذ الآن منعطفا سيئا». هذا لن يكون سوى نثر سيئ، صاح جويس.

وقلت له:

– أنا لا أحاول الدّفاع عنه، وأعتقد أنه لا يوجد شخص آخر يتجاسر على القيام بذلك. إنه شيء من جملة أشياء أخرى. لقد قرر هاردي أن يكتب قصيدا ملحميا كبيرا، وهو نوع أدبيّ ليس موهوبا فيه. والشيء الأخطر من ذلك أن الوحي ينقصه. ألاّ يكون شاعرا هذا أمر متّفقان عليه، غير أن هذا لا يمنعه من أن يكون روائيا، الروائي الأكثر جدية بين كل الروائيين الإنجليز، ذلك أنه لا يخشى أن يأخذ الحياة من وسطها، وهذا ما يجعله مختلفا عن الآخرين بعقليتهم التجارية، والذين يهتمون قبل شيء بتسلية القارئ ليصبحوا في النهاية سطحيين.

– هناك كيبلنغ، قال جويس. لقد اظهر حسّا فنيا في قصة بعنوان: « الفراشة التي تعرقص». أما مجموعته: «قصص هكذا»، فهي تحتوي على لمسات لذيذة من التخيل. وهذا الجانب هو الذي يجذبك على ما أظن.

– نعم. . . لكن هناك جانبا آخر لا أحبه عند كيبلنغ.

– أنت تعني ذلك الجانب حيث يقع التعبير عن الرأي بطريقة مختصرة، والذي أستغله أحيانا عندما يكون الأمر مرتبطا بالمأمورين في الأحياء الجميلة. أنا متفق معك. ثم شوفينيته الرنانة التي لابد أن تكون صادمة بالنسبة للأجانب.

– نعم. . . كتّاب مثل دستويفسكي وتورجينيف وغوركي لم يفتخروا أبداً بقوميتهم. وهذا ما يؤكد صفة الفنان الكبير عندهم جميعا.

– أنا متفق معك. هذا سلوك قبيح وشنيع، للهروب من جوّ سياسي موسوم بالعنف ومدمّر للروح، الذي يعيث فسادا في ايرلندا، فضّلت أن أعيش هنا بعيدا عنها. في مثل هذا الجوّ، من الصعب أن ننجز عملا مقبولا. وفي الجو الذي يخلق «الأب مورفي» هذا أمر مستحيل. وقد توصلت مبكرا إلى أن البقاء في ايرلندا لا يعني سوى التعفّن، ولكن أنا أريد أن أتعفّن بطريقتي الخاصة، وأعتقد أن أغلبية الناس يعترفون أن هذا ما فعلت.

IV

بدا جويس جدّ مهتم بالجوانب الدينيّة لقبر توت عنخ آمون، الذي تحدثنا عنه بعد مرور وقت قليل على اكتشافه، وذلك في ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٢ . وقد قال لي :

-كلما طفت في قاعات «المتحف البريطاني» تستثار مشاعري أمام المعالم الآشوريّة والمصرية : كل تلك الوحوش بقوائمها الضّخمة، ورؤوسها المغطاة بالتيجان، وبوجوهها الشبيهة بوجوه الرهبان، ولحاها الطويلة والممّوجة . وتلك الرسوم المصريّة للطيور والقطط . لقد فكرت دائما بأن الآشوريين مثل المصريين كانوا يفهمون أفضل منّا لغز الحياة الحيوانيّة، وهو لغز تجاهلته المسيحيّة تقريبا، ذلك أنها انشغلت بالإنسان معتبرة الحيوانات مجرد خدم له .

وليس باستطاعتي أن أستحضر في هذه اللحظة، ولو تلميحاً واحداً لطيفاً لكلب أو لقط في «العهد الجديد» . ودائما انتقدت الشياطين التي جسّدت فيه عبر الخنزير . صحيح أن رمز زهرة الزّنبق في الحقول له وقع أكثر عمقا، غير أننا تتساءل لماذا دفع بهذا الرمز بعيدا، ولماذا وقع تجاهل الحياة نصف الواعية الهائلة الاتساع للطبيعة . حياة، بلغت دونما جهد، مثل هذا الإتقان . وفي الحقيقة منذ ظهور المسيحية، يبدو أننا فقدنا معنى النسب، ذلك أننا نعطي أهمية أكثر ممّا يجب للإنسان الذي هو في المسيحية «صورة اللّه على الأرض» . وأنا أعتقد أن عابدي النجوم البابليين كان لهم حسّ أعلى من حسّنا للإرهاب الديني . لكن في أيامنا هذه، تعتبر الكنائس عبادة اللّه من خلال الطبيعة ذنبا .

وبينما كنت أستمع إليه، اندهشت من أن يتحدث جويس في مواضيع تتعلق بالدين ، ويذهب في ذلك بعيدا، ذلك أنه بصفة عامة، يتجنّب بحذر شديد الخوض في مثل هذه المواضيع . وأذكر أنني التقيت عنده ذات مساء، رسّاماً ايرلندياً أصبح عدوّاً لدوداً للكاثوليكية . وقد راح هذا الرسام يسخر منها، منتقداً إياها بحدّة، وقد قيل إن جويس معاد للكاثوليكية هو أيضا، وكنت أنتظر أن يعبر عن رأيه . غير أنه كالعادة، ظلّ صامتا، وشفتاه الرقيقتان مطبقتان بإصرار، ومن دون أن يتلفّظ ولو بكلمة واحدة طوال النقاش الساخن الذي كان يدور بحضوره . التعليق الوحيد الذي قاله بشأن هذا الموضوع، يتلخص كالتالي : فلقد قال لي ذات مرّة : إنه خلال انتخاب بابا جديد، فإنه يعطى لمجمع الكرادلة كمية من الطعام تظلّ تتضاءل يوما بعد آخر، وفي النهاية، هم يتغلبون على غيراتهم الشخصيّة، وينتخبون البابا الجديد . صحيحا أكان هذا أم خاطئا، المهم أنه كان يسلّي جويس كثيرا .

صمته العنيد بخصوص الدين، وانبعاث الإنسان بعد الموت-وهو موضوع تحدثت معه بشأنه، أحيانا- كان يحيّرني، بل يغيظني . وكنا نسير راجلين أمام «مسرح الأدويون»، وإذا بي أدفعه إلى

ركن وأسأله:

- هل تؤمن بحياة بعد الموت؟

متحرجا من سؤالي الفجائي، تخلّص مني وأجابني وهو يهزّ كتفيه قائلا: «مثل هذه الحياة لا تعنيني كثيرا».

ثم وضع حدّا للنقاش، حتى أدركت أني لن أحصل منه أبدا على جواب واضح بخصوص هذه المسألة.

وفي الحقيقة، أعتقد أن إحدى خاصّيات جويس هي أنه يحرص دائما على عدم التعبير عن رأيه الواضح حول هذا الشخص أو ذلك الموضوع. وأنا أوعز ذلك إلى تحفظه إزاء حياة في مجتمع ضيق الأفق، كان يعيشها في دبلن، حيث كل شيء يقال كان ينقل إلى جميع الجهات، مشوها تماما حتى أنه يتخذ أحيانا أبعادا خيالية ووهمية جديرة بأسطورة سلتيّة (نسبة إلى السّليتين).

وهذا ما يفسّر ميل بعض الناس إلى تصديق ما يسمعونه من كلام. وكان جويس لا يعبر عن آرائه إلاّ نادرا، بحيث يصعب علينا التعرّف على معتقداته العميقة والحقيقيّة. وفي الحقيقة كان فكره يبدو منشغلاً بمسألتين أساسيتين: مسألة سلوك الإنسان وسلوك محيطه. وهذا يخص فقط العلاقة مع دبلن. أما الحياة في فرنسا بكل مباهجها ومغرياتها، فإنها كانت تبدو وكأنها تنزلق تحت قدميه، ولا تغذي موهبته إلاّ في حدود تثمينه للحريّة الشخصيّة فيها. وكل ما يقوله عن باريس حين يسأل عن رأيه فيها هو: «إنها مدينة جدّ مريحة»، ماذا يعني بهذا؟ أعترف أني عجزت عن اكتشاف ذلك.

V

ذات مساء، بدا جويس وكأنه قلق وغير مرتاح النفس. وقد استخلصت من ذلك أنه يريد أن يعمل وأن حضوري يزعجه. وأنا انهض استعدادا للخروج، تفوّه بملاحظة عن الكتّاب الرّوس. تلك الملاحظة أشعلت نقاشا حاميا بيننا. فلقد سبق أن قلت له إن الأدبين اللذين يحظيان بإعجابي هما: الأدب الروسي، والأدب الصيني. وإذا ما طلب مني أن اختار كاتبين من بين كل الكتّاب فإني سأختار «Lady Muraski» رغم أنها يابانية، لكنها تكتب حسب الأسلوب الصيني في الكتابة، والآخر هو بوشكين الذي أريد أن أتخذه كمثل يحتذى من بين كل الكتاب الأوروبيين. وقال لي جويس: «ليدي موراسكي لا أعرفها، لذا ليس باستطاعتي أن أدلي برأيي بشأنها. أما بو شكين! - قال ذلك، ثم ألقى عليّ نظرة متحيّرة - وأضاف: « أنا لا أفهم كيف يمكنك أن تتلذذ بمثل هذا اللحم

الهزيل! قصص يمكن أن تسلّي أطفالا، وقصص جنود في معسكرات، وخونة، وأبطال فروسيّة، وجياد تركض في مساحات شاسعة. ومهملة في ركن مناسب، فتاة جميلة في السابعة عشرة من عمرها، يقع إنقاذها في اللّحظة المناسبة. أعلم أن الروس يعشقون بوشكين، لكن إذا ما أنا فهمت جيّدا، فإنهم يعشقونه لشعره الذي لا أستطيع أن أقيّمه لأني لا أعرف اللغة الروسيّة.

ومع ذلك، أتذكر أنني قرأت ذات مرّة ترجمة لنثر بوشكين، قصته التي تحمل عنوان: «ابنة الآمر». وهي قصة مهتزّة يمكن أن تثير اهتمام تلاميذ السنة الثالثة إعدادي. وحسب رأيي، ليس هناك ذرّة ذكاء في هذه القصة. وأنا لا أفهم كيف تفضل بوشكين على الكتّاب الروس الآخرين، على تولستوي الذي فعل الشيء ذاته تقريبا، لكن على مستوى آخر، وعلى تشيكوف.

– تورجينييف يعتبر بوشكين أكبر كاتب روسي، قلت محاولا أن أقدم حجة دامغة على ما ذكرت.

– وهل تعتقد أن بوشكين أهم من تورجينييف؟ سألني جويس.

وأجبت: نعم، ذلك أنه كان أكثر بساطة، وأكثر صفاء، كما انه كان أكثر شجاعة، وأعتقد أن كل فنّ، وكل عمل أدبي يعودان إلى الإنسان ذاته. وأرى أن بوشكين كان أكثر إنسانية من تورجينييف. ويقال إن القيصر كان معجباً بزوجته، ويحمل سرّاً قلادة تمثلها. وأعداء بوشكين، حسداً لموهبته، أو بسبب، إهانة ألحقها بأحدهم، أو ربما بدافع الخبث فقط لا غير، أرسلوا له تلك الورقة الدنيئة، المكتوبة على عجل، قائلين له بأنه «التحق بقافلة الأزواج المخدوعين الملكيين». وبوشكين الظريف أكثر من اللّزوم، والمتهوّر أكثر من اللّزوم، والفخور بنفسه أكثر من اللّزوم، أراد أن يتحدّاهم، فاختار أهمّ وأفضل رام من بينهم (وأعتقد انه كان صهره). وعقب ذلك بثلاث ساعات، كانت العبقريّة الأكثر توهّجاً في أوروبا ملقاة على الأرض ميّتة...

– «نعم، كنت أعتقد دائما انه عاش كما لو أنه فتى صغير، وكتب كما لو أنه فتى صغير، ومات كما لو أنه فتى صغير»، قال جويس.

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام بسبب ملاحظته الرشيقة، رغم أنها مخالفة تماما للحقيقة... وقد رددت عليه قائلا: «علينا ألاّ ننسى قواعد المبارزة الموجودة في ذلك الوقت حيث كان الرجال يدافعون بحميّة عن شرفهم، وشرف نسائهم. مع ذلك أعتقد أنه كان بإمكان بوشكين أن يتجاهل الرّسالة، وأن يعثر على اعتذارات. غير أن مثل هذا الأمر مخالف لمزاجه، ذلك أن ميزته الأساسيّة هي شبابه الدائم والتي بفضلها تستعيد الكليشيهات القديمة الحياة كما لو أن ذلك تمّ بواسطة معجزة. الصعاليك، والفتيات اللاّتي يجدن أنفسهن في ضيق وشدّة من العيش، ومفهومه للشرف، وكل

هذا يكوّن الثّيمات الأساسية لقصته: «ابنة الآمر».

وقال جويس: «أتصور أن ذلك لم يكن أمرا سيّئا بالنسبة لذلك العصر، غير أني لا أتخذ من بوشكين نموذجا، ففي أيامنا هذه، الناس أصبحوا معقدين أكثر من ذي قبل. وهم لا يكتفون فقط بالأحاسيس القوية التي يحصلون عليها من قصص الصعاليك، ومن ضباط الفروسيّة الشّبان، ومن الفتيات اللاّتي يعانين من ضيق في حياتهن. إن الكاتب الحديث له مشاكل أخرى، مشاكل أكثر حميمية، وأقل ابتذالا. نحن نفضل أن نذهب إلى الأركان لكي نبحث عما هو متخف في داخلها. والأمزجة والأجواء والعلاقات الحميمة، وكل هذا هو ما يكون ثيمات الكتّاب الحديثين. لذا، فإنّك عندما تقول إن بوشكين كان أهمّ من تورجينييف فاني لست متأكدا من أنني أفهمك جيدا. ولو قلت انه كان أكثر بساطة فإنه يمكن أن أكون على وفاق معك.

– أكثر بساطة وأكثر أهمية، إنه نفس الشيء تقريبا. خذ قصة تورجينييف الطويلة: «رودين». وهي واحدة من أفضل قصصه. مع ذلك ليست لها ميزة «ابنة الآمر»، ذلك انه مقارنة ببيوتر، نجد أنّ رودين فاسد وضعيف الشخصية. وهو يذهب إلى حدّ التشكيك في نفسه. وناتاليا، البطلة، ليست مثل ماشا، البطلة المثالية، ذلك أنها لم تعد تحب رودين عقب رفض هذا الأخير الفرار معها.

من جانب صعلوك بائس، يعتبر هذا القرار مشرفا، وليس قرارا ناتجا عن الجبن. اعترف أنّ قصة تورجينييف أكثر واقعية والمعالجة النفسية فيها أكثر عمقا. ولكن بوشكين يفهم الأشياء بطريقة أكثر مثالية، وأكثر تجريدا مثلما يقول الرسامون، والمثالي هو الذي تحبّه الناس. فعوض أن يكونوا غارقين في الشكوك ذات الصبغة السايكولوجية، تواجه شخصيات بوشكين الظروف بشجاعة طفولية تنتهي بأن تقوض جميع العقبات. لهذا علينا أن نفضله على تورغينييف. برغم ذكاء هذا الأخير».

أطلق جويس زفرة وملأ كأسا آخر من نبيذ «SAINT PATRICE» ثم قال:

– ها نحن نخوض مرة أخرى نقاشا حول التمييز بين «الشعر» و«الأدب»، وحول ماهية الحياة وما هو الكذب الذي يصنعه الخيال: الفرق بين المراهق الأبدي و«HOMO SAPIENS» (الإنسان العاقل). وبالنسبة لأي كان، أن نحاول أن نكتب بأسلوب بوشكين، أو بأسلوب تورغينييف، فإن هذا يبدو لي كما لو أننا نريد أن نرسم بطريقة «GREUSE» أو «WATTEAU»: انتحال تاريخي ربما، لكن ذلك ليس أدبا حديثا، إذ علينا أن نكون متأثرين بفكر العصر الذي نعيش فيه، وأنت تعترف أنّ أفضل الكتّاب خلال مختلف العصور كانوا دائما بمثابة الأنبياء: تولستوي و دستويفسكي، وابسن والذين قدموا شيئا جديدا في مجال الأدب هم الذين كتبوا عن العصر الذي عاشوا فيه بشكل جيّد.

أمّا الكلاسيكية والرّومانسية، التي أنت معجب بها جدا، فإن روايتي «أوليسيس» غيرت كل شيء،

ذلك أنّي فتحت طريقا جديدا، وسترى أن كثيرا من الكتّاب سيتأثرون بها. انطلاقا من « اوليسيس» بإمكاننا أن نعاين توجهاً جديدا في الأدب ألا وهو الواقعية الجديدة. وحتى ولو انتقدت «اوليسيس» فإن الشيء الوحيد الذي عليك أن تعترف لي به مع ذلك هو أنني حررت الأدب من العوائق التي كان يعاني منها على مدى قرون طويلة. أنت، وهذا أمر واضح، تقليدي للغاية، لكن عليك أن تفهم أن الطريقة الجديدة في الكتابة وفي التفكير قد ولدت، إن الذين يرفضون الخضوع لها سيجدون أنفسهم على الهامش. قبل كان الكتاب يهتمون بالمظاهر الخارجية، ومثل بوشكين، ومثل تولستوي، كانوا لا يفكرون إلا على مستوى معين. أما الموضوع الحديث، فانه يستخلص القوى العميقة، تلك التي توجد تحت السطح، وتلك التيارات الخفية التي تتحكم في كل شيء وتقود الإنسانية عكس التيار الظاهر المتكون من أشياء مسمومة تغلف الروح ومن أبخرة الجنس المفسدة للصحة.

وقلت له:

– قد يكون صحيحا ما تقول... ذلك أني لا أنكر تأثيرك على أدب اليوم، ولا تأثير كل علماء النّفس، رغم انه يحدث ألا استسيغ أفكارهم ونظرياتهم أحيانا. غير أني اعتقد أنّ «السياف الوسيم» لا يزال له مكان في عالم اليوم. من المحتمل ألاّ يكون كهلا، وألاّ ينتج أعمالا أدبية مهمة، وانه لا يرغب في كتابة أعمال أدبية حديثة، رغم أني حين أتمعن في الأمر، أعتقد أنّ هاملت سياف وسيم لكنه فشل في أن يكون سيافا حقيقيا. وفي الحقيقة، في هذا الجانب من سلوكه، تكمن عظمته في أن مأساته متأتية من أنّه بطل تربكه وتشوشه أفكاره. وقسم كبير من الأدب الحديث هو من سلالة هاملت، في المعنى الذي يكون فيه الفعل تحت سيطرة الفكر، وهذا ما يقود إلى التشاؤم.

غير أن جويس بدا وكأنه متضايق من النقاش، فغيّر موضوعه: «ما هي الشخصيات الأدبية التي كان بودك لو تعرفت عليها؟». وسألته بدوري: «هل تعني خلال السنوات الأخيرة؟».

– نعم خلال السنوات الأخيرة

– «الروس الكبار، بوشكين، تورجينييف وتشيكوف»، قلت.

– وتولستوى؟

– نعم، كاد بودّي أن أتعرف عليه رغم اعتقادي أني قد لا أحبه. فلقد كان رجلاً عنيفا للغاية. ثم انه أصبح له في النهاية فكر اجتماعي مع ذلك أعترف انه فنان كبير، وكاتب بعض القصص التي أعتبرها من أفضل القصص التي كتبت إلى حدّ هذه الساعة. وقد لا أحبه، لكن من المؤكد أني سأكون معجبا به ذلك انه ليس باستطاعتك أن تحب أولئك الذين يسحقونك. وأنا أرى أن تولستوي هو «ايفان الرهيب» بالنسبة للأدب، لامع وملكي وفظ. وبرغم جاذبيته الواضحة، فإننا نحس أن شيئا يتخفى

تحتها، كريها وخاليا من الشفقة. وبرغم أننا لا نملك سوى الإعجاب بموهبته، إلا انه لا يحدث فينا التأثير نفسه الذي يحدثه تورجينييف. وعندما أفكر في الأدب الروسي استحضر تلك الفتاة الجميلة، التي اسمها ليزا في عمله الذي حمل عنوان: « النّبلاء». أستحضر شهامتها، وجديتها، وصراعها الداخلي. والقصة تسيل بالضرورة كما الحياة نفسها ومن دون أن نحسّ بسيلانها تماما مثلما هو الحال بالنسبة للحياة. «فتاة هيفاء، فارعة القامة، بشعر اسود». هكذا يصورها لنا، تاركا لنا الحرية في رسم ما تبقى من صورتها بحسب رغبتنا وخيالنا، وأحاسيسها تصبح أحاسيسنا.

ورد جويس عليّ قائلا: «لك أذواق غريبة ذلك أني اعتقد أن عمل تورجينييف الذي ذكرت هو أضعف أعماله، والذي من بين شخصياته ذلك الزوج المخدوع المتردد والمبلبل الذهن، «LA VRETSKI» وتلك المترهبة، المصابة بفقر الدم، ليزا، وكل تلك العائلة الغريبة الأطوار من العمات، والأعمام، وأبناء العم الذين يحيطون بها في تلك الرواية التي لها بالنسبة لي مذاق كربونات صوديوم أدبي. وإذا ما كانت ذاكرتي جيدة، فإن الشخصيات تتحصن في غرفها لكي تزرد مخلصة لعملها ذاك كل الإخلاص. والاستراحة الوحيدة التي بها ينعمون، هي أنهم يقومون بين وقت وآخر بجولات في الريف في عربة للخيول، لكي يجلسوا بالقرب من بحيرة مطلقين الزفرة تلو الأخرى، ثم يعودون سريعا إلى البيت خشية أن يصاب احدهم بالزكام: إنه الوجود الخالي من أي جدوى لمزارعين يرفضون العمل في أرضهم. ومرة أخرى تنتهي الرواية في الضباب الذي فيه بدأت وذلك عندما تقرر الفتاة ليزا الدخول إلى الدير.

واحتججت أنا على كلامه قائلا: «نحن لا يمكن أن نعتبر ما قلت ملخصا جيدا. من المحتمل ألاّ يكون لليزا اندفاع وحمية بعض البطلات الفرنسيات أو توهج الدوقة «SANSEVERINA» في «شارتروز بارم» على سبيل المثال، ذلك أنّ الدوقة أكثر جمالا، ومتقدة عاطفيا بشكل استثنائي في، حين نشعر أنّ ليزا يحركها وهج روحاني داخلي، وهذا ما يفسر الفارق الأساسي بين الجنس السلافي والجنس اللاتيني. ونحن لا نشرع في فهم ليزا إلا في نهاية الرواية في المشهد الذي تدور وقائعه في غرفة مارثا تيموفينا وذلك عندما تجثو أمام الأيقونات، في وهج الشموع... هل تتذكر ذلك؟

– نعم... أتذكر. انه خداع جميل، ومشهد مقدّم لذلك الزوج المخدوع البائس الذي تجعله ينتظر طوال الوقت. وأنا أرى أنها مثلت دائما جوهر الأنانية الدينية، بل الجبن نفسه، ذلك أنها لم تكن قادرة على مواجهة الفضيحة التي يمكن أن يسبّبها هروبها مع لافريتسكي، ولا أنّ تتخلى عن الرفاهية الناعمة في بيتها لكي تذهب معه للعيش في المنفى. وهكذا دخلت إلى الدير لكي تصبح راهبة. وفي الحقيقة، الميزة الوحيدة في هذا الكتّاب، هي أنه يحتوي على المحاولات الأولى للدراسة

السايكولوجية في الرواية. لكن كل تلك الحكاية مكتوبة بأسلوب قديم، عفا عليه الزمن ، حتى أننا نشعر أنها لا تقف على دعائم صلبة. والأفكار السرية لليزا تظل مخفية، وأيضا التحركات الحقيقية لوجودها الداخلي ، ذلك أن تورجينييف هو مثل كل الكتاب الكلاسيكيين الذين لا يهتمون إلا بالمظاهر الجميلة، لكنهم يتظاهرون بتجاهل البنية الداخلية، والعمق المرضي والسيكولوجي اللذين يخضع لهما سلوكنا وأفكارنا. الفهم هو هدف الأدب. ولكن كيف يمكن أن نفهم الكائنات البشرية إذا ما نحن ظللنا نتجاهل وظائفها الحيوية؟ لقد كان تورجينييف عاطفيا يرغب في أن يكون دائما متيّما بحساسيّته الخاصة .

في حياته كان يحب النظام رغم الإعجاب الذي يكنه للثوريين. ويبدو انه كان يجد لذة خاصة في إذلالهم وقهرهم مثلما فعل مع بازاروف في «الآباء والبنون»، خلافا لدستويفسكي مثلا الذي كان نبيلا روسيا له طرق لطيفة، يلعب بالنار أحيانا وفي الوقت نفسه يحرص على ألاّ يحترق. وبرأيي كان تولستوي أكثر صدقاً ونزاهة، ذلك أنّ تورجينييف كان يحب الرفاهية في حياته الخاصة وحلقاته الأدبية أكثر من أي شيء آخر. والشخصيات الوحيدة المقنعة في رواياته هي تلك المصابة بالأنيميا، والتي تمثل المجتمع الراقي. وما كان يهمه هو العزلة وليس الفعل. وهذا العالم ليس عالما من الرسم المائي الناحل الألوان. أعترف انه كان شخصا لطيفا ونحن لا نقدر إلا أن نحبّه مثلما نحب شخصا ضعيفا ، لكنه ظريف ، مع ذلك لا يمكنني أن اعتبره كاتبا كبيرا. وأعتقد أن أفضل كتبه هو ذلك الذي كتبه في سنوات شبابه، أعني بذلك: «حكايات صياد»، ذلك انه نفذ فيه إلى عمق الحياة أكثر مما فعله في رواياته الأخرى. وعندما اقرأ هذه الروايات أحس بذلك القدر الفائر الذي هو روسيا خلال عام ١٨٤٠ أي قبل الفيضان. وسوف أظل أتذكر دائما الجواب الذي قدمه مزارع لتورغينييف لكي يوضح له لماذا لم يتزوج: «هل لك عائلة؟ وهل أنت متزوج؟». ورد المزارع على هذا السؤال قائلا: «لا سيدي. . . هذا أمر مستحيل. . . تاتيانا فاسيلييفنا، آخر زوجة، ليرحمها الله، لا تسمح لأحد بأن يتزوّج. وقد ذهب بها الأمر إلى حد أنها كانت تقول أمام القس: «فليحمني الله من المرور من هناك. . . أنا فتاة بائرة وسأظل كذلك حتى اللحظة الأخيرة من حياتي». وما كل هذه الضجة التي يحدثونها بشأن هذه المسألة؟« . إنهم قوم فاسدون. هكذا هم. وماذا تراهم يطلبون بعد ذلك». وانفجر جويس ضاحكا بغتة وهذا ما لا يحدث له إلا نادرا .

– و«مياه الربيع» . . . ما رأيك فيها . ؟ سألته بعد أن سكن مرحه المفاجئ.

غير انه أزاح ذلك بهزة من كتفيه.

– ليس فيها ما يمكن إن يثير اهتمامي، لذا فاني لا أكاد أتذكرها. غير أني أتذكر أنّ الشاب الروسي

سانين وقصة حبه لتلك الفتاة الإيطالية الحلوة المدعوة جيما، وهو فصل بلا نهاية، مضجر وفيه مبارزة تبدو كما ولو أنها شعرة تسقط في الحساء، وتلك النّزهة على الجياد في الغابة والقبلات اللاهبة تحت العاصفة المطريّة، وكل هذا جدير بأوبيرا لـ: «BELLINI» .

– لقد كان تورجينييف كاتباً كلاسيكيا، وفي تعارض مع كاتب مثل دستويفسكي، فإن خصاله هي الاعتدال والتوازن وهما شيئان غير مقبولين في زمننا هذا. إن دستويفسكي يمر فوقنا مثل عاصفة مطرية، ونحن نتذكره كما انه عاصفة مطرية تحدث من وقت لآخر. لكن عند تورجينييف هناك الظرف واللباقة وقوة يمكن مقارنتها بقوة موبسان . . .

ورفض جويس رأيي قائلا: «لا . . . العواطف المتكلفة لا يمكن أن تكون شيئا قويا . . . ولا يمكنها أن تكون كذلك. إنها مزقة جدّ حارة، وجد مريحة. والجيل الجديد ليس باستطاعته أن يتحمل هذا. فهل يدهشك هذا؟ الوجد يخلق ويدمر. أمّا العواطف المتكلفة فهي ليست غير دوامة تحتفظ بعديد الأنواع من القاذورات والأوساخ، وأنا لا أعرف عملا أدبيا عاطفيا استطاع أن يصمد أكثر من جيلين اثنين. القوة العنيفة وغير المتوقعة أفضل. على الأقل نحن إزاء شيء بدائي. قصص تورغينييف كانت أفضل من رواياته.

وبعد استراحة قصيرة، أضاف جويس قائلا: «الكاتب الذي يعجبني أكثر من غيره من كتّاب ذلك العصر هو تشيكوف، ذلك أنه قدم شيئا جديدا في مجال الأدب، ومسرحا مضادا للمفهوم الكلاسيكي للمسرح. قبله كان للمسرحية هدف محدد، ووسط محدد، ونهاية محددة، وعلى الكاتب أن يقدم المشهد الكبير في الفصل الثاني، وان يعالج الفعل في النهاية. لكن في مسرحية من مسرحيات تشيكوف، ليس هناك بداية، وليس هناك وسط، وليس هناك نهاية، وليس هناك مشهد كبير في الفصل الثاني. مسرحياته تواصل للفعل، فيه الحياة تفيض على خشبة المسرح ثم تنسحب مثل موجة، وفيها، ليس هناك أي شيء وقع حله. ونحن نشعر أن جميع شخصياته عاشوا قبل الظهور على الخشبة، وهم يواصلون حياتهم بشكل درامي، قبل أن يغادروها.

مسرح تشيكوف ليس مسرح أفراد، ولا مسرح حياة. انه جوهره ذاته، خلافا لشكسبير مثلا الذي جعل مسرحه صراعا بين الانفعالات والطموحات، وفي حين أن العلاقات بين الأفراد في مسرحيات أخرى تبدو قريبة من العنف، فإن شخوص تشيكوف عاجزون عن التحاور في ما بينهم. كل واحد يعيش في عالمه الخاص حتى في الحب، هم غير قادرين على المساهمة في حياة الآخر، وعلى المشاركة فيها، ووحدتهم تخيفهم وتفزعهم. وبالنسبة للمسرحيات الأخرى، نحن نشعر أنها مبنيّة بشكل جيد حد التمنع. أشخاص غير عاديين يقومون بأفعال شاذة وغير طبيعية. لكن مع تشيكوف كل شيء

محجب، مكبوت، مثلما هو الأمر في الحياة، بتيارات عديدة وبتيارات مضادّة تدخل وتخرج مشوشة الخطوط الكبيرة الجد واضحة تلك التي يعجب بها كتّاب المسرح الآخرون. إن تشيكوف هو الكاتب المسرحي الذي قلّص العالم الخارجي إلى المقدار اللازم، والمرغوب فيه. ومع ذلك، وبأسلوب من أكثر الأساليب تجردا، هو قادر أن يعبر عن التراجيديا وعن الكوميديا وعن الشخصية وعن الانفعال. وعندما تنتهي المسرحية، نحن نفكر للحظة أن شخوصه تخلصوا من أوهامهم. لكن عندما ينزل الستار نحن ندرك أنهم سيضعون لأنفسهم أوهاما جديدة لكي ينسوا القديمة. . .

وقلت له:

– أعترف انه فريد من نوعه. وإنسانيته فريدة من نوعها. وفي مسرحية مثل: «الأخوات الثلاث» نحن نلمس ذلك بشكل أفضل. ولكن بما أننا نتحدث عن الأدب الروسي فما هو رأيك في دستويفسكي؟ وهل هو مهم في نظرك؟

وأجاب جويس:

– نعم، هو مهم، ذلك انه الرجل الذي ابتكر أكثر من أي شخص آخر النثر الحديث ومنحه درجة من القوة تضاهي الدرجة التي عليها اليوم. وقوته المتفجرة هي التي حطمت الرواية الفيكتورية بفتياتها المدّللات، وأماكنها المعتادة. كتب خالية من الخيال، ومن العنف. أعرف أن البعض يعتقدون أنه كان غريب الأطوار بل مجنونا، حتّى وإن كانت المحركات التي يستعملها في أعماله مثل العنف والرغبة هي الإلهام الأدبي ذاته. وكما نحن نعلم، هناك أشياء كثيرة تفسر بالحكم عليه بالإعدام، والذي وقع التراجع عنه في اللحظة التي كان ينتظر فيها دوره ليتلقى رصاصة الموت وبالسنوات الأربع التي أمضاها في سيبيريا. غير أنّ هذه الأحداث لم تكوّن طبعه رغم أنها قد تكون أثرت في ذلك إذ إنه كان يحب العنف دائما وهذا ما جعله كاتبا حديثا. كما أن هذا هو الذي قاده إلى الشعور بالاشمئزاز إزاء العديد من معاصريه من الكتاب مثل تورجينييف الذي كان يمقت العنف. أما تولستوي فقد كان يحب دستويفسكي رغم انه كان يعتقد انه لا يملك موهبة كبيرة أو بالأحرى روحا فنية. مع ذلك، فقد قال ذات مرة بأنه «يعشق شجاعته»، وهذا رأي فيه جزء كبير من الحقيقة، ذلك أن شخصيات دستويفسكي تتصرف بطريقة مشطة مثل المجانين تقريبا. «بخار وصخب». هكذا وصفه جورج مور. حشو كلامه رائع. غيران ذلك لا يفتنني.

– أنا أيضا لا يفتنني.

ورد جويس:

– نعم، ولكن هل يمكن لإنسان مثل جورج مور، ذلك الباريسي أن يعجب بكاتب مثل

دستويفسكي؟ مور الذي كان يعشق تورغينييف وبلزاك، وتقليديين مثله بكل تلك المواضيع المقززة التي يعالجونها في أعمالهم. ولكن هناك أشخاصا، بل كثير من الأشخاص يعتقدون أن «الإخوة كارامازوف» هي من أفضل الروايات التي كتبت. وأنا اقر بأن هذه الرواية كان لها وقع كبير عليّ.

– ولكن هي الفوضى بعينها. قلت وعلق جويس على ملاحظتي قائلا:

– ربما تكون كذلك. غير أني أعتقد أن دستويفسكي كتب فيها مشاهد لا يمكن أن تمحى من الذاكرة. هل تتذكر اللحظة التي ذهب فيها «اليوشا» لرؤية والده بعد أن قام «ديميتري» بتعنيفه. كان رأس الأب لا يزال مغلفا ليعاين الجراح التي أصيب بها في المرآة، مقسما بأنه سيواصل حياته كما فعل دائما، وانه لن يتخلى أبدا عن الرذيلة. كبرياؤه وتبجحه وحبه لـ «غروشينيكا» الشابة العاهرة والعذراء في الوقت نفسه.

وقلت لجويس:

–أتذكر أن كاتباً من بين أصدقائي طلب منّي وعيناه ملتهبتان بالحماس أن أقول رأيي في «غروشينيكا» غير أني لم أستطع أن أجيبه. وعندئذ أدركت أن «غروشينيكا» هي في الحقيقة، مثل كل شخصيات دستويفسكي غير واقعية. وعندما كنت أقرأ، كنت أتساءل طوال الوقت إذا ما كان شخص عاقل يمكن أن يتصرف وان يتحدث مثلهم. مبالغات مفرطة تتجاوز كل الحدود الممكنة، لذا يمكننا أن نقول هم جميعا مجانين.

وعلق جويس على كلامي قائلا:

– يمكنك أن تسمي هذا جنونا. لكن هنا يكمن سرّ عبقرية دستويفسكي. كان هاملت مجنونا، ومن هناك أتت الطاقة الكبرى. وبعض شخصيات المسرح الإغريقي مجنونة. وغوغول كان مجنونا. وفان غوخ كان كذلك. لكن أنا أفضل كلمة «هيجان» التي يمكن أن تعني الجنون. وفي الحقيقة كل الرّجال العظام كانوا شبيهين بشخصيات دستويفسكي. وهذا هو منبع عظمتهم. الإنسان العاقل لا يمكن أن يقوم بعمل مهمّ.

VI

مثل كل الناس، اهتم جويس اهتماما كبيرا بقضية«BYWATERS-THOMPSON» " التي كانت تملأ كل الصحف الإنجليزية في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٢، والتي كتبت عنها حتى صحيفة «TIMES» مقالا مفصلا. وقد كان بايووترز رئيسا للخدم في باخرة. وكان قد تعرف على سيدة تدعى

«طومسون» قبل ذلك بسبعة أعوام. وكان من عادته أن يكتب لها رسائل عندما يكون في البحر. وكانت هي تعدم رسائله، غير أنها كانت تحتفظ له بالرسائل التي كانت تبعث بها إليه، والتي كانت تفكر فيها في الوسائل الممكنة لتسميم زوجها.

وهذه الرسائل عرضت أمام المحكمة متسببة في خسارة السيدة «طومسون». وبالرغم من أنها مأساوية، فإن القضية لم تكن تخلو من بعض العناصر الهزليّة المضحكة. فقد كانت السيدة «طومسون»توقظ زوجها في الليل، لكي يشرب بطلب منها لمبة مسحوقة: «وفي المرة الثالثة، وجد زوجي قطعة منها. لذلك تخليت عن ذلك حتى عودتك».

وكان بايووترز شابا وسيما، وفي ملامحه ما يدل على الأمانة والاستقامة. وقد رأيت صورته في الجريدة عندما كان يقاد إلى قاعة المحكمة. وكان رجال الشرطة يدخلونه إليها بحرص الأم على ابنها الوحيد، لكي يحاكم، ولكي يحكم عليه بالإعدام في ما بعد. ولست أدري لماذا يشفق عليهما الناس، غير أني اعتقد أنهما رمز ذلك النضال القديم قدم العالم الذي يخوضه الشباب والحب ضد التقاليد. مع هذا كان من الصعب عليّ أن افهم لماذا لم يقررا الهروب قبل انكشاف علاقتهما السرية. ويبدو أنّ السيدة «طومسون» كانت تتمتّع بوضع جيد، لذا كانت تخشى سوء العاقبة إذا ما فرت معه لتعيش معه براتبه الزهيد. وهذا الخوف مبالغ فيه، ذلك انه كان من الممكن ألا تفقد الوضعية الجيّدة التي تتمتع بها. بالإضافة إلى أنّها كانت سيدة أعمال، فإنه لن يكون من الصعب عليها العثور على وضعية جيدة أخرى. ولكن يبدو أنها قررت إذا ما هي خيّرت أن تظل سيدة. محترمة أن تسمّم زوجها. وحسب ما يبدو فإنّ بايووترز كان ـ حسب موقفه أمام المحكمة ـ شابا ساذجا وأبّي النفس. وقد ظهر وكما لو أنه يرغب في أن يتحمل جميع المسؤوليات في ما حدث لحماية عشيقته. وكان أيضا شابا فائرا من الناحية الجنسية، وفاقدا تماما لتوازنه تحت تأثير السيدة «طومسون». وخلال رحلاته البحرية، كان يدقق في الرسائل التي كانت ترسلها له، ويعيد قراءتها أكثر من مرة. ويمكننا أن نتعرف على حالته النفسية من خلال جمعه لقصاصات الصحف والتي كان البعض منها مرسلا إليه من قبل السيدة «طومسون» وهنا نماذج من تلك القصاصات:

«القس مسموما». «النساء اللائي يكرهن الرّجال». «معركة دبلات الساق والعراقي». «الموت بحساء الدجاجة». «الزواج السري». الخ. . . ومن دون شك، فإن بايووترز كان ينوي الفرار، غير أنها كانت تلّح على ضرورة تسميم زوجها، وفي الحقيقة، إنّ فكرة الجريمة كانت تتلبّسها. ففي إحدى رسائلها إليه كتبت تقول: «لقد التقيت أمس امرأة فقدت ثلاثة من أزواجها في ظرف احد عشر عاما. ولا أحد منهم فقدته في الحرب. اثنان منهم ماتا غرقاً، والثالث انتحر. والبعض من النساء اللاتي اعرفهن لا يتمكن

من فقدان زوج واحد.

«كم كل هذا ظالم وغير عادل. . .». والحل المثالي بالنسبة لها كان أن يقرر زوجها الانتحار، ولكن يبدو أن هذا الأخير كان فاقدا لأي ذرة خيال بطريقة غير طبيعية، وكان يبتلع فتات اللمبة بصفاء وراحة بال، إلى أن اكتشف قطعا كبيرة منها في الخليط الذي كان يبتلعه يوميا. ويبدو انه كان عارفاً بأن بايووترز كان عاشقا لزوجته، وأنه وزوجته كانا يتآمران ضده، غير أني أعتقد انه لم يكن يظن أن الأمر سيصل إلي ذلك الحد. ومن المؤكد أنه كان يحب زوجته رغم أنّها كانت تكرهه في السر. لكن أحيانا، وبفضل حيلها النسائية فإنّها كانت تنجح في إخفاء كراهيتها له. وفي إحدى رسائلها إلى بايووترز كتبت تقول:

«قلت له إني لا أحبه، فبدا مندهشا مما قلت». وعندما طلب بايووترز من الزوج أن يطلق تجاهله هذا بشكل هادئ. وقد وقع التلميح إلى أن «طومسون» كان يضرب زوجته، وهذا ما كان يغيظ بايووترز غيظا شديدا. ولاحظ جويس قائلا:

– إن الرجل– اللغز في القضية كلها هو الزوج. وهو بالأحرى كتلة لا تتزعزع أكثر منه قوة لا يمكن قهرها. وهو جد متشبث بعاداته حتى أنّ كل ما في الخارج يبدو له غير واقعي. ونحن لا نملك له صورة دقيقة وواضحة. غير أن هناك شيئا مؤكد بالنسبة لي، وهو أنه إذا ما حدث هذا في فرنسا، فإن العشيقة والعشيق لن يحكم عليها بالإعدام. وأنا اعتقد أن العدالة البريطانية كانت على خطأ عندما حاكمتهما معا في نفس قفص الاتهام، ذلك انه إذا ما اعترف الأول بأنه مذنب، فإن الثاني هو أيضا مذنب. في حين أن حجة ضد الواحد منهما ليست حتماً حجة ضد الآخر. وهذا ما اخذ طابعا حقودا وميالا للثأر. وبعد كل هذا، فإن السيدة «طومسون» لم تقتل زوجها. واعتمادا على ما نحن نعرفه. فانه من المحتمل أن تكون قد عارضت قتله غير انه لم يكن باستطاعتها منع ذلك. صحيح أنّها حرّضت بايووترز على ذلك ولسنوات عدة. غير أن هذا لا يعني أنها نفذت ما كانت تفكر فيه. إنّها قضية جد دقيقة. وهذا صحيح، ولكني أرى انه أمر شنيع ولا إنساني أن يسيّر القاضي المحاكمة بهذا الشكل.

– ليس هناك أدنى شك في أنه قتل الزوج بطعنات سكين. . . قلت.

– أعرف ذلك. ومثل طواحين الله ترحي العدالة البريطانية ببطء، ولكن بطريقة دقيقة مبالغ فيها للغاية. مع ذلك أعتقد أن كل الناس صدموا. يا له من شيء مرعب القانون في بعض الأحيان. كل ما تبقى بإمكانه أن يتطور. والفرنسيون فهموا هذه الضرورة، بل إنهم ذهبوا بعيدا جدا في نظر البعض. وعلى أية حال، من المحبذ أن يصبح القانون اقل صرامة وقسوة. أعرف أن السيدة «طومسون» كتبت ذات مرة إلى بايووترز رسالة تقول له فيها:

«زوجي يملك، حسب القانون، كامل الحق في ما لك الحق فيه بالطبيعة وبالحب». وكانت ملاحظة القاضي على ذلك في ملخص المداولات: «إذا ما كان هذا اللاّمعنى شيئا، فإنه يعني أن حب زوج لزوجته لا يعني شيئا ذلك أن الزواج معترف به من قبل القانون». كما لاحظ أيضا أن رسائل بايووترز تفوح منها رائحة الغباوة والعواطف الحمقاء، الضّيقة الأفق، وبعبارة أخرى، الإنسانية لا تعني شيئا. أما القانون فيعني كل شيء. وأتصور أن هذا صحيح إلى حد معين، لكن علينا أن نخفف من صراحة القانون حتى نتمكن من تمييز الفارق بين جريمة فظة مثلا، وبين فعل امرأة تقتل طفلها يأسا، ثّم تحاول أن تقتل نفسها وهو ما يعتبره القانون جريمة مضاعفة.

وقلت له:

– لقد رأيت في الصحف صوراً للمتهمين في القضية، وكانت للزوج ملامح شاب إنجليزي وسيم وشبيه ببايووترز نفسه. وفي الحقيقة كان من الممكن أن يكونا شقيقين. باختصار، كان الرجل الذي بإمكانه أن يلفت انتباه تلك المرأة التي أرادت قتله بعد أن تزوجها. وكانت هي امرأة جميلة، وكانت شخصية استثنائية. فقد كانت تدير بحزم وبقوة معملا للخياطة خاصّا بالنساء في المدينة. واعتمادا على صورة أخذت لها وهي بصحبة زوجها وبايووترز خلال إحدى العطل التي أمضوها معا، نلاحظ أن الزوج جد عاشق لها. كان ممددا ورأسه على ركبة زوجته.

وردّ جويس قائلا:

– في الحقيقة، ليست هناك أية حجة دامغة ضدها، وذلك برغم كل الرسائل التي تقول فيها بأنها وضعت كذا وكذا في الكأس الذي شربه زوجها. ولم يعثر على أيّ اثر لسم في أحشاء «طومسون»، ولا على أي ذرة من اللمبة المسحوقة. وفي النهاية، كان لا بد من استعمال سكين بايووترز الذي ثمنه ستة شلنات لقتله. لذلك، هي أقسمت أمام المحكمة أنها لم تعط شيئا لزوجها، وان كل هذا ليس غير أفكار غريبة عبر عنها بايووترز. وبطبيعة الحال كان فكرها هي ملبدا بما كانت تقرأه. أما بالنسبة لرسائلها، فإنّها كانت تكتبها لأنها كانت ترغب في الظهور بمظهر المرآة الرومانسية أمام بايووترز، ذلك لأنه كان يحدثها بالتفصيل عن حياته خلال رحلاته البحرية. وبإمكاني أن أرى المشهد بوضوح تام...

مدينة «ILFORD»... الشوارع المعتمة بأضواء يصعب علينا تمييزها خلف الستائر الصفراء... وبعيداً، ريح خفيفة ترتفع حاملة رائحة السمك الحادة والبطاطس المقلية. «طومسون» وزوجته يسيران متحاضنين تحت الأشجار. وفجأة، يندفع ذلك الشاب ويغرس السكين في صدره، وتطلق هي صرخة عالية، وتنتحب،

طالبة النجدة، أو هي تزعم ذلك. بإمكاني أن أحس هنا الفوحان الإنجليزي، وهذا يذكرني... نعم يذكرني بـ«STRAND»... لنقل ذات مساء يوم سبت. الناس مكدسون في الشوارع أمام الحانات. والمشاجرات تندلع فجأة. والشوارع التي يسير فيها الناس بصعوبة. والفوانيس التي تضيء الأرصفة الملطخة بالطّين والمدعوسة أكثر من اللزوم. أتذكر إلى أي حد كنت أكره هذا. وإذا ما أنا أدركت أنه ليس باستطاعتي أن أتأقلم مع الحياة في بريطانيا، ولا أن اعمل هناك، فلأنني أحسست في لا وعيي انه في هذا الجو الذي حذف من القوة، ومن السياسة، ومن المال، فإن الكتابة ليس لها المعنى الكافي. وبرغم أنه توجد حرية كبيرة في انجلترا، بصرف النظر عن كل ما يقال، فإنه لا توجد حرية فردية.

في انجلترا، كل إنسان يتصرف وكأنه رقيب على جاره، أما هنا في باريس، فإنّنا نتمتّع بالحرية الفردية التي لا مثيل لها في أوروبا كلها. كل إنسان لا يعير أدنى اهتمام لما يفكر فيه جاره، أو لما يفعله، شرط ألاّ يصبح غير محتمل. لكن في انجلترا، كل الناس يتدخلون في شؤون الآخرين، وهو شيء لا يطاق إلا بالنسبة للإنسان الإنجليزي. في دبلن التي أمضيت فيها طفولتي وشبابي، كنا نتمتع بهذه الحرية المستهامة المتأتية من غياب المسؤولية، ذلك انه في ذلك الوقت، كان البريطانيون هم الذين يحكمون. لذا، كان كل واحد يقول ما يرغب في قوله. ومنذ أن وجدت دولة ايرلندا الحرة، أسمع أن الحريات تراجعت. فالكنيسة أصبحت تتدخل في كل شيء، حتى أننا غدونا أمة برجوازية، ذلك أن الكنيسة حلت محل الطبقة الأرستقراطية. وأنا لا أرى في كل هذا أملاً بالنسبة لنا على المستوى الثقافي. ما إن تمسك الكنيسة بزمام الأمور، حتى تسمح لنفسها بالتهام كل شيء. وما تتركه بقايا لا يرغب فيها احد. ومن المحتمل أن يتواصل مثل هذا التهور إلى أن تصبح بلادنا أسبانيا ثانية.

ترجمة : حسونة المصباحي